حديث الأنبياء (٥)

خليل الرحمن إبراهيم
عليه السلام

اسم الكتاب: خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام.

اسم المؤلف: إبراهيم أحمد قشطة

الطبعة الثانية: ١٤٤٤هـ – ٢٠٢٢م.

خليل الرحمن

إبراهيم

عليه السلام

أ/ إبراهيم أحمد قشطة

رفح – فلسطين
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

الطبعة الثانية
طبعة مزيدة ومنقحة

الإهداء

إلى والدي – قدّس اللهُ روحَه – الذي علمني أنَّ الرجال يصنعهم العرق.

إلى والدتي – رزقها اللهُ حسنَ الخاتمة – التي علمتني أنَّ الكلمة الطيبة شجرة وارفة يستظلّ تحتها الناس من قيظ الحياة.

إلى شيوخي وأساتذتي الذين علموني أنَّ الإسلام دين عظيم لو أن له رجال.

إلى زوجتي التي علمتني أنَّ مَنْ لا يحبّ صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر.

إلى أُختيّ اللتين تعلمت منهما أنَّ الأخوة مشاعر جميلة حميدة.

إلى أبنائي أحمد وتسنيم ولمى ومحمّد الذين علموني أنَّ الأبوة أحلى المعاني.

المحتويات

المقدّمة

إنَّ الحمد الله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمّدا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ (الأحزاب: ٧٠ - ٧١)

أمّا بعد:

فإنَّ أصدق الحَديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار، أعاذنا الله من البدع والضلالات والنيران.

وبعد:

هذا الكتاب الخامس من سلسلة (حديث الأنبياء) والموسوم باسم (خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام)، ويروي هذا الكتاب قصّة أبي الأنبياء إبراهيم، صاحب المكانة العالية، والمنزلة الرفيعة الساميّة عند الله تعالى، فهو ثانٍ رسول بعد محمّد – صلى الله عليه وسلم – في المنزلة والقرب من الله تعالى، وهو أحد أولي العزم من الرسل، وأحد الخمسة

الذين تدور عليهم الشفاعة يوم الدين، وقد أعطاه الله هداه وصلاحه من قبل إلى وجوه الخير في الدين والدنيا ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ (الأنبياء: ٥١)

كما ويروي الكتاب خبريّ إسماعيل وإسحاق عليهما الصلاة والتسليم.

وقد اجتهدتُ في هذا الكتاب أن أبسط قصّة خليل الرحمن وابنيه الكريمين، وذلك من خلال فصلين:

حيث جاء الفصل الأوّل: (أبو الأنبياء إبراهيم وابنيه إسماعيل وإسحاق عليهم السلام) يتحدث عن: ديانة قوم إبراهيم، ودعوته للخاصّة والعامّة، حيث دعا أباه آزر، ثم دعا جميع أهل زمانه حتى ملكهم الجبّار الكافر العنيد النمرود، كما وذكر الفصل ما كان من قومه من صدّ وتكذيب لإبراهيم حتى ألقوه في النار، وناقش الفصل قضية مهمة: هل وقع شكٌّ من إبراهيم؟

وذَكَرَ الفصل زواج إبراهيم بسارة، وهجرته بها إلى الشام ثم مصر، وذكر زواجه من هاجر المصريّة، ومنّة الله عليه بالغلام الحليم إسماعيل عليه السلام.

كما وذَكَرَ الفصل هجرته بأسرته الجديدة هاجر وإسماعيل إلى أرض فاران (الحجاز) بأمر ربّه، وذكر الفصل النعم التي أجرها الله على أسرة

خليله في أرض الحجاز، كما وناقش الفصل مَنِ الذبيح؟ وذَكَرَ خبر مولد الغلام العليم إسحاق – عليه السلام – من زَوْجه البارة الصالحة سارة، وسرد الفصل قصّتي: زواج إسماعيل، وبناء الكعبة كرمز للتوحيد.

كما وناقش الفصل التساؤل التالي: هل بنى آدم أو الملائكة الكعبة قبل إبراهيم؟ وخُتِمَ الفصل بإظهار فضل إبراهيم في الملل الثلاث الكبرى: اليهوديّة، والنصرانيّة، والإسلام.

أمّا الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصّة إبراهيم وابنيه: إسماعيل وإسحاق) تحدّث عن أهمِ الثمار المستطابة في قصّة خليل الرحمن إبراهيم وابنيه الكريمين عليهم وعلى نبيّنا أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

الفصل الأوّل

أبو الأنبياء إبراهيم وابنيه: إسماعيل وإسحاق – عليهم السلام –

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾ (ص: ٤٥)

﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨﴾ (ص: ٤٨)

الفصل الأوّل:

أبو الأنبياء إبراهيم وابنيه: إسماعيل وإسحاق – عليه السلام –

◎ تمْهيد:

تأتي قصّةُ إبراهيم خليل الرحمن في الترتيب القَصصي للقرآن عقب قصّة صالح عليه السلام مباشرة، فقد جاء في سورة براءة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (التوبة: ٧٠)

قال الصابوني: " إبراهيم– عليه السلام – هو أبو الأنبياء، وهو الجدُّ الأكبر لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذ أنه من ولد إسماعيل، وإسماعيل هو ابن إبراهيم، فيكون إبراهيم هو الجدّ الأعلى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد خصّ الله – تبارك وتعالى – إبراهيم – عليه السلام – بخصائص ومزايا فريدة، فجعله أبًا الأنبياء، وإماماً للأتقياء، وقدوة للمرسلين، واختاره (هو ورسولنا محمّد) من بين الرسل والأنبياء بالخُلة، فهو خليل الرحمن ومنه تناسل الأنبياء، وتتابعوا عقب الأجيال، فجميع أنبياء بني إسرائيل من نسله؛ لأنّهم من أولاد يعقوب بن إسحاق،

وإسحاق هو ابن إبراهيم، فمن إبراهيم تتفرع شجرة النبوّة، حتى خاتم المرسلين صلوات الله عليه وسلم." (محمّد الصابوني)

قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ (العنكبوت: ٢٧)

قال ابن كثير: " وهذه خُصلةٌ سنيّةٌ عظيمةٌ، مع اتّخاذ الله إياه خليلًا، وجعله إمامًا للناس، أن جعل الله في ذرّيّته النبوّة والكتاب، فلم يوجد نبيٌّ بعد إبراهيم إلّا هو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة ولده يعقوب، ولم يوجد نبيٌّ من سلالة إسماعيل سوى النبي العربي عليه أفضل الصلاة والتسليم." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وفي هذا الفصل الثمين سوف نذكر أخبار هذا النبي الكريم إن شاء الله العليم الحكيم!!

◎ من قوم إبراهيم عليه السلام؟

قوم إبراهيم – عليه السلام – هم الصابئة.

ومن الصابئة؟

الصابئة أمّة كبيرة من الأمم الكبار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ (البقرة ٦٥)، فذكر الله الصابئة ضمن الأمم الأربعة الكبار.

وذكرهم أيضاً في الأمم الستة الرئيسة، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ (الحج ١٧)

ما ديانتهم؟

الصابئة أمّة بها المؤمن والكافر، قال ابن القيم: " وهم منقسمون إلى مؤمن وكافر." (ابن القيم ٢٠٠٢)

ما شعائر دينهم؟

قال هراس: " وكانت شعائر عبادتهم مزيجًا من شتى الديانات، حتى أنه قلما يوجد دين من الأديان المعروفة إلّا وللصائبة شبه به في بعض الشعائر." (محمّد هراس)

وقال العقاد: " ولا نعلم اليوم على التحقيق تفصيل عبادتهم في أيام الدعوة الإسلاميّة، ولكنهم كانوا ولا يزالون ينزهون الله غاية التنزيه، ويقولون إن الكواكب ملائكة نورانيّة، ولم تكن لهم هياكل ولا أصنام عند ظهور الإسلام، ولا بدّ عندهم من مخلوق متوسط بين الروحانيّة والماديّة يهدي الناس إلى الحقّ؛ لأنّ الروحانيات مخلوقة من كلام الله – جلّ وعلا – دعاها بأسمائها، فوجدت، ولا يصل كلام الله إلى الناس إلّا بواسطة مخلوق بين النور والتراب ترفعه الرياضة والهداية، وتؤثره نعمة الله." (محمّد هراس)

على كل حال كانت الصابئة منها المؤمن ومنها الكافر، وكان شرك كفارهم من جهة الكواكب والنجوم، حيث كانوا يعتقدون أنها أجسام للملائكة، واتّخذوا لها تماثيل وأصْنامًا في الأرض، وعبدوها من دون الله عزّ وجلّ.

والذي يظهر أن قوم إبراهيم الصابئة كانوا بحران في العراق، فحران هي دار الصابئة، والله أعلم.

فائدة: الصابئة الموجودون اليوم هم الصابئة المبدائيّة، والتي تعتقد أنَّ يحيى نبيٌّ لها، وهي فرقةٌ يقدّس أصحابها النجوم والكواكب، ومن أهمّ المعالم الدينيّة لهذه الطائفة: الاتّجاه نحو نجم القطب الشمالي، وكذلك التعميد في المياه الجارية.

◎ دعوة إبراهيم لأبيه آزر:

قصَّ علينا القرآن الكريم دعوة إبراهيم – عليه السلام – لأبيه آزر، فقد كان آزر مشركاً ممّن يعبدون الأصنام، وأحقّ الناس بإخلاص النصيحة له هو الأب؛ لذا لم يألُ الخليل جهداً في تذكير أبيه ونصحه، وتحذيره من عذاب الله.

وبدأ إبراهيم خطابه لأبيه آزر بلفظ جذاب للقلوب، وهو النداء بلفظ الأبوة ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾؛ ليستميله، ويكون لقوله بعد ذلك أكثر تأثير على أبيه، وليكسر حدّة غضب أبيه عليه خاصّة عند سماعه قوله: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا

يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ (مريم: ٤٢) أي: لِمَ يا أبتِ تعبد صنمًا أصمًا لا ينفع ولا يضرّ؟

وتأمّل –وفقك الله للحقّ– : لم يستخدم إبراهيم أسلوب الأمر أو النهي المباشرين، فلم يقل مثلًا: لا تعبدِ الشيطان! وإنما قال تعريضًا: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ (مريم: ٤٢) وهذا من أدبه وحسن أخلاقه!!

ثم دعا أباه بمنطق العقل، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ (مريم:٤٣) أي: يا أبتِ لا تحقرني، وتقول: من أنت أيها الغلام الحدث حتى تطلب منى ترك ديني ودين آبائي؟! فإني قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك!

وتأمّل أيضًا: هذا الخطاب من إبراهيم!! ألا تلحظ فيه اللطف واللين؟ فلم يصف أباه بالجهل أو العناد المطبقين، بل جاء بصيغة تقتضي أن عنده وعند أبيه علماً، وكل ما في الأمر أن الذي وصله لم يصل إلى أبيه.

لذا حَسُنَ بعد هذا اللطف في الخطاب، والترقق في الحوار أن يقول له تعريضاً وليس أمراً: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ (مريم: ٤٣)

أي: " اقبل نصيحتي وأطعني أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك، وهو دين الله الذي لا عوج فيه." (محمّد الصابوني)

ثم بيّن إبراهيم لأبيه آزر أن هذا الشرك الذي هو فيه إنما هو من تسويل الشيطان عدوّ الإنسان الأوّل اللدود، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ (مريم: ٤٤) أي: لا تطع أمر الشيطان اللعين في الكفر وعبادة الأصنام والأوثان، فإن الشيطان كان عصيًا للرحمن.[١]

قال القرطبي: " وإنما عبّر بالعبادة عن الطاعة؛ لأنّ من أطاع شيئًا في معصية الله فقد عبده." (القرطبي: ٢٠٠٢)

فائدة: صرح إبراهيم هنا بالنهي عن طاعة الشيطان، حيث هذا المقام مقام يحتاج إلى التصريح.

(١) **تأمّل:** اختار إبراهيم – عليه السلام – اسم (الرحمن) من بين سائر أسماء الله تعالى، فلم يقل مثلًا: إن الشيطان كان للجبّار أو القهّار عصيا؛ وذلك تأليفًا لقلب أبيه، واستجلابًا للإيمان بهذا الاسم، واستشعارًا لرحمته، ومن ناحية ثانية، قال السعدي: " وفي إضافة العصيان لاسم الرحمن، إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتغلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة من أكبر الأسباب لنيل رحمته." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

ثم ختم إبراهيم موعظته الرقيقة المشفقة لأبيه بالإعذار والإنذار، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ (مريم: ٤٥) فحذّره من سوء العاقبة، وهي الخلود في النار القاسية، بسبب موته على الكفر، وجَعْله الشيطان له قرينًا!

وتأمّل – يا رعاك الله –: كيف نسب إبراهيم الخوف إلى نفسه دون أبيه، حيث قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ وهذا هو فعل المشفق الخائف على من يشفق عليه.

وتأمّل – وفقك الله للحق –: قول إبراهيم: ﴿يَمَسَّكَ﴾ والمسُّ ألطف من غيرِه من ألفاظ هذا الباب، فلم يقل مثلًا: يُنزل بك، أو يخسف بك.

وتأمّل كذلك: نَكّر إبراهيم كلمة ﴿عَذَابٞ﴾، فلم يقل العذاب، وهذا ألطف في الخطاب!

وتأمّل كذلك: تكرير إبراهيم لفظ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ في حواره مع أبيه أربع مرّات!!

وفي كل ذلك دليل على شدّة الحبّ والرغبة من إبراهيم في صون أبيه من العقاب، وإرشاده إلى الصواب.

وأخيرًا تأمّل ترتيب إبراهيم البديع لنصيحته لأبيه، قال الصابوني: " وقد رتّب إبراهيم الكلام في غاية الحسن؛ حيث نبّهه أوّلًا إلى بطلان

عبادة الأوثان، ثم أمره باتّباعه في الاستبدال وترك التقليد الأعمى، ثم ذكره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفق." (محمّد الصابوني)

فأي خطاب ألين وألطف من هذا الخطاب والحوار!!

الحاصل: " قد كان إبراهيم في دعوته لأبيه مثالاً للولد البار الذي لا يريد إلّا الخير بأقرب الناس إليه، فلم يقسُ على أبيه في الكلام، ولم يعنفه أو يزعجه، وإنما خاطبه بكل أدب ووقار، وجادله بألطف عبارة وأحسن إشارة." (محمّد الصابوني)

فيا ترى بمَ أجابه أبوه؟!

◎ موقف آزر من دعوة إبراهيم:

اِسْتَمَعَ آزر إلى هذه الدعوة الصادقة اللطيفة المشفقة، ولكنها – ويا للأسف – لم تنفع هذا الشقي المحروم، فردّها، بل سَخَّفَ عقلَ إبراهيم وزجره، حيث قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰإِبْرَٰهِيمُ﴾ (مريم: ٤٦) أي: " أتارك يا إبراهيم عبادة آلهتي ومنصرف عنها." (محمّد الصابوني)

يا الله العجب!! قابل آزر استعطاف ابنه إبراهيم ولطفه في الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد، فناداه باسمه ولم يقابل قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بـ " يا بني.

يا لها من غلظة!!

وتأمّل: قدم آزر خبر المبتدأ **(راغب)** على المبتدأ (أنت)، فقال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾، ولم يقل: أأنت راغب، والسرُّ في ذلك: قال عتيق: " وذلك لأهمية المتقدم وشدّة العناية به، وفي ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته، وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها هذا بخلاف ما لو قال: أأنت راغبٌ عن آلهتي؟"

(عبدالعزيز عتيق: ٢٠٠٢)

ولم يكتفِ آزر بهذا الزجر، بل هدده: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ (مريم: ٤٦) أي: لئن لم تترك شتمك آلهتي، ودعوتي إلى عبادة الله وحده؛ لأرجمك بالقول والفعل ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ (مريم: ٤٦) أي: اقطعني وأطلّ هُجراني، وكأن آزر يلوح بهذا الكلام بالعقاب الاقتصادي!

بهذه الغلظة والجهالة المنقطعة النظير قابل آزر دعوة ابنه الراقية المهذبة للهدى والدين، ولا تتعجب من ذلك فهكذا يكون حال الكفر مع الإيمان، وهكذا يكون حال القلب البعيد عن الإيمان والذي أفسده الطغيان.

وبالرغم من فظاظة آزر إلّا أن إبراهيم الحليم ردّ عليه بجواب عباد الرحمن: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ (مريم: ٤٧) أي: ستسلم من أن أتكلم معك بغلظة أو خشونة، وزاده خيرًا ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى

حَفِيًّا﴾ (مريم: ٤٧) أي: سأكثر من الدعوة لك بالهداية والمغفرة؛ لعلمي بأن الله بي لطيفًا.

ولم يكن وعد إبراهيم السابق لذرّ الرماد في العيون، وإنما أَتْبَعَ إبراهيم القول العمل، واستغفر إبراهيم لأبيه مدّة طويلة في أدعيته، حيث قال متضرّعًا: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ (إبراهيم: ٤١) وقال: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الشعراء: ٨٦)

إشكال: كيف وعد إبراهيم – عليه السلام – أباه بالاستغفار مع أنه كافر؟

قال الأنصاري: " معناه سأسأل الله لك توبة، تنال بها مغفرته يعني الإسلام، والاستغفار للكافر بهذا الوجه جائز، كأنه يقول: اللهمَّ وفقه للإسلام، أو تبّ عليه واهده، أو أنه وعده ذلك قبل تحريم الاستغفار للكافر." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

على كل حال: توقف إبراهيم عن الاستغفار لأبيه آزر عندما تبيّن له أنه عدوٌّ لله، وتبرأ منه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ (التوبة:١١٤) وهذا التبرّؤ يؤكد على

حقيقة مهمة في الولاء والبراء مفادها: أنه لا صلة أساسًا بين مؤمن وكافر مهما كان النسب، فالولاية دائماً وأبداً تكون للدين لا للنسب.

وبالرغم من براءة إبراهيم هذه من أبيه آزر إلّا أن شفقة إبراهيم الحليم على أبيه قد تجددت في الآخرة، فصحَّ عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " **يلقى إبراهيمُ أباهُ آزرَ يومَ القيامة، وعلى وجهِ آزرَ قَتَرَةٌ وغَبَرَةٌ، فيقولُ له إبراهيمُ: ألم أقلْ لك لا تعصِني؟ فيقولُ أبوه: فاليومَ لا أعصيك، فيقولُ إبراهيمُ: يا ربِّ إنك وعدتني أنْ لا تُخزيني يومَ يبعثون، فأيُّ خزيٍ أخزى من أبي الأبعدِ؟!** (أي: الأبعد عن رحمة الله) **فيقول الله تعالى: إنّي حرَّمتُ الجنّةَ على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيمُ، انظُرْ ما بين رجليك؟ فينظر، فإذا هو بذيحٍ** (أي: ذكر الضباع) **مُلْتَطخٍ، فيؤخذ بقوائمِه، فيُلقى في النار.**"[١] (رواه البخاري: ٣٣٥٠)

هذه هي نهاية آزر، هذه النهاية التي لم تقع بعد، لكنها ستحدث حتمًا كما أخبر الصادق المصدوق!!

---

(١) ذكر: الحكمة من تلطيخ آزر بالروث حتى لا يُعرف أنَّ آزر والد إبراهيم النبي في النار، وبذلك يتجنب إبراهيم الخزي يوم القيامة إذا رأت الخلائق أن أباه الذي دعاه للإيمان في النار.

لطيفة: ما اسم والد إبراهيم الحقيقي؟

اسم والد إبراهيم الحقيقي هو (آزر)، وهذا الذي دلَّ عليه القرآن، أمّا جمهور النسب – ومنهم ابن عباس – يقولون: إنّ اسم والد إبراهيم تارح، وأهل الكتاب يسمونه تارخ.

قال ابن جرير: " والصواب أن اسمه (آزر) ولعلَّ له اسمان علمان، أو أحدهما لقب، والآخر علم، والله أعلم." (ابن جرير: ٢٠٠٢)

◎ دعوة إبراهيم لقومه:

مرَّ معنا أن قوم إبراهيم كانوا في غالبيتهم مشركين، وكان شركهم من جهة الكواكب والنجوم، حيث عبدوها واتّخذوا لها التماثيل والهياكل؛ لذا كانت دعوة إبراهيم التوحيديّة دعوتين: دعوة تجهض عبادة الكواكب والنجوم، والدعوة الثانية تجهض عبادة الأصنام التي اتّخذوها لهذه الأجرام السماوية، وقد سلك إبراهيم في دعوة قومه ثلاث مراحل:

◎ المرحلة الأولى: إبراهيم يهدم عبادة الأجرام السماوية:

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾

(الأنعام: ٧٥ – ٧٨)

عند تأمّلنا للآيات السابقة نلحظ فطنة إبراهيم – عليه السلام – وحذاقته في هدم هذه العبادة المتأصلة في نفوسهم، حيث استطاع أن يغلب قومه الكافرين بطريقة ذكيّة وهي الاستدراج وإرخاء العنان حتى يكرَّ عليهم لهدم عبادة الأجرام السماوية، فحينما غطى على إبراهيم الليل رأى كوكباً، ويبدو أن هذا الكوكب كان أكثر الكواكب نورًا؛ لأنّ تخصيصه بالذكر يدلُّ على زيادته عن غيره، على كل حال: قال إبراهيم لقومه بأسلوب المتهكم الهازئ: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ أي أهذا يصلح أن يكون ربّي؟

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: فلمّا غاب ذلك الكوكب عن كبد السماء، قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ أي: هل يصحّ عبادة إلهاً يحضر حيناً ويغيب أحياناً؟!

وقد جاء إبراهيم بجمع المذكر المختصّ بالعقلاء بناء على اعتقاد قومه أن هذه الكواكب عاقلة متصرّفة في الكون، تماشيًا معهم!

ثم انتقل بهم إلى القمر: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: ظاهراً، ورأى نوره زائدًا عن نور الكوكب، قال متهكماً ساخرًا: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: هذا القمر الذي تدعونه إلهاً أيكون ربّي؟ ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب، قال إبراهيم: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الأنعام: ٧٧) أي: ومن الذي يهديني من الضلال في حال غياب هذا الإله المزعوم؟![١]

وفي قول إبراهيم السابق منتهى الفطنة والذكاء، حيث أظهر لقومه ضرورة احتياج البشر وافتقارهم لهداية إله لا يغيب، وبذلك يهيئهم إلى إعلان توحيد الألوهيّة لله ربّ العالمين.

---

(١) **تأمّل:** تدرج إبراهيم البديع في خطابه لقومه، حيث قال إبراهيم في الكوكب: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾، بينما قال في القمر: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ والسرُّ في ذلك: أنَّ ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾أخفّ من ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، وبذلك يكون إبراهيم قد ترقى معهم من الشديد في الخطاب إلى الأشدّ؛ لئلا ينفروا من مناظرته!!

ثم انتقل بهم إلى الشمس: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةً﴾ (الأنعام: ٧٨) أي: ظاهرة، عند ذلك قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾[1] (الأنعام: ٧٨) أي: قال متهكماً مستهزئًا: يا لهذا الجرم! هو أكبر الأجرام السماويّة، وأكثر ضوءاً ونفعاً!!

قال ذلك تَمْهيدًا لإقامة الحُجّة البالغة عليهم، واستدراج لهم إلى ما يريد أن يلقيه على مسامعهم.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ أي: لمّا غابت الشمس سُقِطَ في أيديهم، وتحقّق ما كان يستدرجهم إليه، وتقرر لكل ذي لُبّ سليم أن هذه الأجرام السماويّة لا يمكن أن تصلح أن تكون إلهاً، فكيف للإله أن يغيب ويترك ملكه؟!

---

(١) **لطيفة لغوية:** قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾قال عباس حسن: " اسم الإشارة الأوّل (هذا) مذكر، مع أن المشار إليه – وهو الشمس – مؤنث، فحقّ الإشارة إليها أن تكون باسم الإشارة للمؤنث، مثل: هذه.

ولكن جعل المبتدأ مذكر مثل الخبر لأنهما عبارة عن شيء واحد، ولصيانة الربّ عن شبهة التأنيث، ولو قيل: هذه ربّي؛ لقال الذين في قلوبهم مرض أقوالاً كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان؛ لذلك تراهم يقولون في صفة الله (علّام)، ولا يقولون: علّامة، وإن كان العلّامة أبلغ، احترازاً من علامة التأنيث." (عباس حسن)

وتأمّل – وفقك الله للحق –: لم يستدلّ إبراهيم على بطلان إلهيّة هذه الأجرام السماويّة بمجرد ظهورها، وإنما استدلّ على بطلانها عقب أفولها، بالرغم من أن أفولَها متحقّقٌ؛ لأنّه أراد أن يقيم استدلّاله على المشاهدة والنظر؛ ولأنّ ذلك أقوى وأقطع لحجّة هؤلاء المشركين.

على كل حال: " هذه مهارةٌ من نبيّ الله إبراهيم واستدراجه للقوم حتى أقام عليهم الحُجّة، ووضع أيديهم على مواطن الضعف منهم، (حيث) انتقل بهم من كوكب إلى كوكب، وأراهم أن موقفه منهم موقف الباحث حتى لا ينفروا من مجادلته، وأراهم أن الكواكب على اختلافها قوّة وضعفاً لا يصلح واحد منها أن يكون إلهاً معبوداً لأنَّها تغيب وتحضر."

(محمّد هراس)

بعد هذه المهارة من إبراهيم في المناظرة أنهاها بالإتيان بالحقيقة الأكيدة الساطعة، وذلك بعد أن تهيأت النفوس لسماعها، فأعلن التوحيد الخالص: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ (الأنعام: ٧٨ – ٧٩)

كان هذا المقام الأوّل من مقامات دعوة إبراهيم لقومه.

وقبل أن ننتقل إلى المرحلة الثانية من مراحل دعوة إبراهيم لقومه، نطرح السؤال الآتي:

هل شكّ إبراهيم عليه السلام؟

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾

(الأنعام: ٧٥ – ٧٨)

قال هراس: " ظاهر هذه الآيات يفيد أن إبراهيم – عليه السلام – نظر في هذه الأجرام العلوّيّة التي كان يعبدها قومه؛ ليمتحن صلاحيتها للإلهيّة، فلمّا تبيّن له بطلان إلهيّتها بسبب أفولها وغيابها أعلن البراءة منها، ومعنى ذلك أنه كان في شكّ من أمرها أوّلاً، ومعلوم أن الشكّ أخو الكفر، فقد أخبر الله عن الكفار أنهم قالوا لرسلهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ (هود: ٦٢)، فعبّروا عن كفرهم بما جاءت به الرسل – عليهم الصلاة والسلام – بالشكّ والارتياب فيه." (محمّد هراس)

وقال: " فكيف يعتري الشكّ مقام خليل الرحمن مع ما هو معلومٌ من أن الأنبياء – عليهم السلام – معصومون من الكفر قبل الرسالة وبعدها، وأنهم يُنَشؤون على الفطرة السليمة التي هي الدين القيم والتوحيد الخالص؟" (محمّد هراس)

قال ابن كثير: " وقد اختلف المفسرون في هذا المقام هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلًّا بقوله: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي﴾" (ابن كثير: ١٩٨٧)

ثم قال ابن كثير: " والحقُّ أن إبراهيم في هذا المقام كان مناظرًا لقومه، مبيّنًا بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام."

(ابن كثير: ١٩٨٧)

وقال هراس: " وقال صاحب صفوة البيان عند تفسيره قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أنه قال هذا على سبيل الفرض وإرخاء العنان مجاراة مع عبّاد الأصنام والكواكب؛ ليكرَّ عليها الإبطال، ويثبت أن الربَّ لا يجوز عليه التغيير والانتقال." (محمّد هراس)

وقال السعدي: " والصواب هو أن المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهيّة هذه الأجرام العلوّيّة وغيرها، وأمّا من قال أنه

مقام نظر في حال طفوليته، فليس عليه دليل." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

ولكن إذا فرضنا جدلًا أن هذا الكلام منه كان على وجهة النظر والاستدلال يبقى إشكال (هل شكّ إبراهيم؟) قائمًا!

وأجابوا عن هذا الإشكال أن ذلك كان قبل النبوّة.

قال هراس: " ولكن هذا لا يحلُّ المشكلة، إذ هو تسليم بحصول الشكّ من إبراهيم إلّا أنه كان قبل النبوّة! وهذا مستحيلٌ في حقّ الأنبياء!" (محمّد هراس)

وقال هراس: " وأحسن ما يمكن أن يقال في هذا الصدد: أن إبراهيم – عليه السلام – أراد اليقين بضم نظر العقل إلى نور الفطرة، فأخذ يسائل نفسه كلما طلع كوكب من هذه الكواكب: أهذا ربّي كما يدّعي ذلك أبي وقومي؟

فيتجلى له الحقّ واضحاً حين يراها تتهاوى واحداً بعد الآخر، وتغيب وراء الأفق البعيد، فاطمأنّت عند ذلك نفسه، وازداد يقينه بما كان قد عرفه قبل ذلك عن طريق الإلهام والفطرة، فهو كقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠)

فإبراهيم – عليه السلام – لم يكن يشكُّ في قدرة الله – عزّ وجلّ – على إحياء الموتى، ولكنه أراد أن يرى ذلك عياناً؛ ليتضح له عين اليقين مع علم اليقين." (محمّد هراس)

وقد ثبت من حَديث أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم: " **نحن أحقُّ بالشكّ من إبراهيم إذ قال: ربِّ أرني كيف تُحيي الموتى قال أو لم تؤمنْ قال بَلى ولكنْ لِيَطْمَئِنَّ قلبي.**"

(رواه البخاري: (٣٣٧٢)، ومسلم: (١٥١))

تساؤل: ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: " نحن أحقّ بالشكّ من إبراهيم"؟

قال السبت: " قال الحافظ عند كلامه على هذا الحَديث حكى بعض علماء العربية أن أفعل ربّما جاءت لنفي المعنى عن الشيئين، نحو قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ (الدخان: ٣٧) أي: لا خير في الفريقين، ونحو القائل: الشيطان خير من فلان، أي لا خير فيهما، فعلى هذا المعنى قوله: **نحن أحقّ بالشكّ من إبراهيم**" لا شكّ عندنا جميعًا."

(خالد السبت: ١٤٢١)

◎ المرحلة الثانية: دعوة إبراهيم للنمرود:

المتأمّل في حياة خليل الله إبراهيم – عليه السلام – يجدها كلها سلسلة متصلة الحلقات في النضال والثورة على عقائد قومه الوثنيّة والشركيّة.

وتوّج إبراهيم ذلك النضال ضدّ الشرك وأهله بمحاجته الطاغية النمرود (ويقال: النمروذ بالذال) ملك الكنعانيين.[١]

لِمَ وقعت هذه المناظرة؟

يذكر الطبري: " أن إبراهيم خرج مع الناس لجلب الميرة (أي: المؤونة) من النمرود، فكان كلما وصل إليه رجل سأله من ربّك؟ فيقول: أنتَ، فلمّا وصل إبراهيم – عليه السلام – سأله النمرود من ربّك؟ فقال: ربّي الذي يحيي ويميت، وجرت بينهما المناظرة المعروفة."

(ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

---

(١) **وهذا الاسم (النمرود أو النمروذ)** لم يصرّح القرآن ولا السنّة الصحيحة به، وإنما ذكره المفسرون عند تفسيرهم لقصّة الذي حاجّ إبراهيم في ربّه، حيث قالوا: إن اسمه النمرود، والله أعلم باسمه.

على كل حال: تحديد اسم الذي حاجّ إبراهيم في ربّه بالنمرود أو غيره ليس بأمر خطير الشأن.

بينما ذكر ابن كثير، وهو الصواب: " أن إبراهيم قد دعا النمرود للإيمان بالله – تعالى – فأخذته العزّة بالإثم، وأصرَّ على ادّعاء الربوبيّة." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

الحاصل: لقد كان هذا المَلك (النمرود) يدّعي الربوبيّة، فلمّا دعاه إبراهيم – عليه السلام – لترك هذا الكفر، وعبادة الله تعالى، تجبّر وحاجّ إبراهيم في ربّه.

أحداث المناظرة:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: ألم يصلك يا محمّد نبأ الذي تجرأ وجادل إبراهيم فيما لا يقبل التشكيك، وهي وحدانيّة ربوبيّته، ومن غريب أمر النمرود هذا أن الذي حمله على ذلك التشكيك المُلك الذي آتاه الله تعالى، وكان المفترض أن يخضع للذي منحه هذا المُلك العظيم.

على كل حال: صدع إبراهيم أمام هذا الطاغية بالتوحيد عندما سأله النمرود: من ربُّك؟ فقال إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: " (ربّي) هو المنفرد بأنواع التصرف، وخصَّ منه الإحياء والإماتة؛ لكونهما أعظم أنواع التدابير." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

ولك أن تتخيّل حجم الخوف والهلع اللذين قد يصيبان أي إنسان مكان إبراهيم! خاصّة إن عرفت أن هذا الطاغية كان من الأربعة الذين ملكوا الدنيا.(١)

فيا لها من جرأة في الصدع بالحقّ أمام هذا الطاغية! وأي طاغية، طاغية ترتعد فرائص الجبابرة عند سماع اسمه، فضلاً عن مجادلته ومعارضته ومناظرته!

وإن تبحث عن سبب هذه الجرأة تجدها في قوّة الإيمان وحرارته التي أذابت كل خوف، ونزعت من قلب إبراهيم كل فزع، وجعلته قلباً مطمئناً بوعد الله تعالى.

الحاصل: غضب الطاغية من جرأة إبراهيم هذه، والتي لم يعتدها النمرود من قبل، فقال بحنق وعتوّ: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾(٢) (البقرة: ٢٥٨) " فقد أتى برجلين قد تحتمّ قتلهما، فإذا به يأمر بقتل أحدهما،

---

(١) فقد ذُكر – والله أعلم بصحة ذلك – أن الذين ملكوا الدنيا أربعة: مؤمنانِ وكافران، فالمؤمنان: سُليمان عليه السلام وذو القرنين، والكافران: النمرود وبختنصر.

(٢) **تأمّل:** " لم يقل (النمرود): أنا الذي أحيي وأميت؛ لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرّف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله، ويصنع صنعه."

(عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

ويعفو عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا، وأمات الآخر." (حافظ الحكمي: ١٩٩٩)

لم يشغل إبراهيم نفسه بالكشف عن مغالطة هذا الملك الجاهل وتلبيسه، ولكنه انتقل من فوره وساعته إلى حجّة أخرى لا يستطيع لها دفعاً، ولا يملك معها إلّا التسليم والإذعان، فقال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: " إذا كنتَ تدّعي الألوهيّة، وأنك تحيي وتميت كما يفعل ربّ العالمين ﷻ، فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيئته، فأطلعها من المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرّة واحدة." (محمّد الصابوني)

ولِمَ لَمْ يعارض النمرود إبراهيم فيقول له: سل أنتَ ربّك حتى يأتي بها من المغرب؟

ذُكر: لم يقل النمرود ذلك لأنه خاف أنه لو سأل إبراهيم ذلك، لدعا إبراهيم ربَّه؛ فسيجيبه ربُّه حتمًا، فتكون زيادة في فضيحته وانقطاعه.

ولكن الصواب: أن الله تعالى قد صرفه عن تلك المعارضة إظهارًا للحجّة عليه.

الحاصل: كانت نتيجة هذه المناظرة: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: أُخرس هذا الفاجر بالحُجّة الساطعة القاطعة ﴿وَٱللَّهُ

لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: " لا يلهمهم الحُجّة والبيان في مقام المناظرة والبرهان بخلاف أوليائه المتقين."

(محمّد الصابوني)

قال السعدي: " وفي هذه الآية برهانٌ قاطعٌ على تفرد الربّ بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل."

(عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

متى وقعت هذه المناظرة؟

ذُكر: أن هذه المناظرة وقعت بين إبراهيم والنمرود بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن قد اجتمع به من قبل، فكانت بينهما هذه المناظرة.

وذُكر: أنه لمّا كسر إبراهيم الأصنام سجنه النمرود، ثم أخرجه ليحرقه بالنار.

والذي يظهر أن هذه المناظرة قد حدثت قبل إلقاء إبراهيم في النار، ويحتمل أنها كانت سببًا محفزًا لإلقاء إبراهيم في النار مع ما ألحقه من التفتيت والهوان للأصنام كما سيأتي، والله أعلم.

كيف كانت نهاية النمرود؟

ذُكر أن بعوضة دخلت في منخره، وبقيت تعذبه سنوات طوال، حتى أهلكه الله.

والذي يظهر أن هذه الرواية من الإسرائيليّات؛ لذا صون كلام الله عنها أسلم.

أمّا نهاية النمرود لا نشكُّ في أنها كانت نهاية مفجعة مثل كل من ادّعى الربوبيّة، أمثال: فرعون، والمسيح الدجّال، وغيرهما، والله أعلم بها.

كان هذا هو المقام الثاني من مقامات دعوة إبراهيم لقومه، وننقلك إلى المرحلة الثالثة من مقامات دعوة إبراهيم لقومه.

◎ المرحلة الثالثة: إبراهيم يهدم عبادة الأصنام:

ذكرنا المقام الأوّل والثاني من مقامات دعوة إبراهيم لقومه، وهي إبطاله لعبادة الأجرام السماوية، بعدما ناظرهم مناظرة ذكيّة مبيّنًا فيها خطأهم وضلالهم في عبادة هذه الأجرام السماوية، وذكرنا جانبًا مضيئًا قويًّا في دعوة إبراهيم لقومه، وهي مناظرة الملك الكافر العنيد النمرود، وفي هذا المقام الثالث نبيّن كيف استطاع إبراهيم أن يهدم عبادة الأصنام؟

فأوّل ما بدأ به إمام الحنفاء إبراهيم – عليه السلام – من خطته لهدم عبادة الأصنام أنه جاهر قومه – ومن قبلهم أبوه – بالبراءة والعداوة، قائلًا لهم في صرامة وجرأة: ﴿إِنَّا بُرَءَآؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ (الممتحنة: ٤)

ثم بعد هذه المجاهرة بالبراءة والعداوة أخذ يستخفّ بالأصنام، فسأل قومه استخفافاً: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ (الشعراء: ٧٠)؟ فردّ عليه قومه: ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾[1] (الشعراء: ٧١) أي: قالوا: نعبد أصْنامًا نظلُّ لها مقيمين على عبادتها ودعائها.

فقال إبراهيم متعجبًا: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣﴾ (الشعراء: ٧٢ –٧٣) فأجابوه: ﴿بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ (الشعراء: ٧٤) ويا للعجب!! اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئًا من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون فهم على آثارهم يهرعون؛ لذا تعجب إبراهيم من اتّباعهم هذا الاتّباع الأعمى للأسلاف الذين كانوا على ضلال وانحراف، فأعلن ثورته عليها، فقال: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ

---

(١) **تأمّل:** لم يكتفوا بقولهم: نعبد أصْنامًا وحسب، وإنما قالوا: ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ قال ابن الناظم: " وإنما بسطوا الكلام ابتهاجًا منهم بعبادة الأصنام، وافتخارًا بمواظبتها منحرفين عن الجواب المطابق المختصر." (ابن الناظم: ٢٠٠١)

ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء : ٧٥ – ٧٧) أي: قال إبراهيم: إن كانت هذه الأصنام شيئًا ولها تأثير مؤثر، فتخلص إليّ بالمساءة، فإني اتّخذتها عدوًّا لي ولا أباليها.

ثم سلك إبراهيم معهم مسلكًا منطقيًّا في إثبات أحقيّة الله بإفراده بالعبادة، حيث ساق إبراهيم البراهين العقليّة الصحيحة، والتي لا يستطيع أي شخص له مسكة عقل أن يردّها، فسرد صفات من يستحقُّ العبادة: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾ (الشعراء: ٧٨ – ٨١)

ولنا وقفات مع هذه الآيات:

الوقفة الأولى: مع الضمير (هو):

قال زكريا الأنصاري: " زاد (هو) عقب الذي في الإطعام والسقي؛ لأنّهما ممّا يصدران من الإنسان عامّة، فيقال: زيد يطعم ويسقي، فذكر "هو" تأكيدًا وإعلامًا بأن ذلك منه تعالى لا من غيره، بخلاف الخلق، والموت، والحياة، لا تصدر من غير الله." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٢)

الوقفة الثانية: قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ حيث أسند إبراهيم المرض إلى نفسه، فقال: وإذا مرضتُ، ولم يقل: والذي هو

يُمْرضني كسائر الآيات؛ وذلك رعاية للأدب مع الله، وإلّا فالمرض وغيره من الله تعالى.

الوقفة الثالثة: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ **فما المقصود بالطمع في هذه الآية؟**

الطمع أصله يدلُّ على الرجاء، فإبراهيم عندما قال: (أطمع أن يغفر لي خطيئتي) أي: أرجو أن يغفر الله لي خطيئتي، وهذا بلا شكّ حال المؤمن الطمع في أن يغفر الله ذنوبه.

الوقفة الرابعة: هل كان لإبراهيم خطايا؟

ذكر المقصود بخطاياه: الصغائر، فالصغائر فتقع من الأنبياء، ولكن لا يقرّون عليها، ويلهمون التوبة منها.

بعد وقفاتنا هذه المضيئة نكمل حديثنا عن إبراهيم وهو يهدم عبادة الأصنام، وينزع حبّها من قلوب قومه، بإظهاره عداوتها حيناً، والاستخفاف بها حيناً آخر.

وها هو الآن يسخر من تفاهة عقول قومه بسبب عبادة هذه الحجارة، فقال: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ (الصافات: ٩٥ – ٩٦) فإبراهيم – عليه السلام – يسخر منهم لأنّهم يعبدون أوثاناً ينحتونها بأيديهم، والله خلقهم، وخلق أوثانهم التي يعبدونها، وهو الذي يجب أن تكون العبادة الحقّة له وحده.

⊙ تخويف إبراهيم بالآلهة:

قرعت أسماع القوم هذه الإهانات المتتالية من إبراهيم لآلهتهم، فخوّفوه عاقبة شتمه لها، فقابل إبراهيم تهديداتهم هذه بجرأته المعهودة، صادعًا بقول الحقّ والتوحيد: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾

(الأنعام: ٨٠ – ٨١)

أي: " أتجادلونني في وجود الله ووحدانيّته، وقد بصرّني وهداني إلى الحقّ، وأنا لا أخاف هذه الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله؛ لأنّها لا تبصر ولا تسمع، وليست قادرة على شيء ممّا تزعمون إلّا إذا أراد الله أن يصبني شيء مكروه فيكون، وكيف أخاف آلهتكم وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء." (محمّد الصابوني)

⊙ إبراهيم يكيد للأصنام:

لم يكتفِ إبراهيم بهذه الدعوة القوليّة الجريئة إلى ترك عبادة الأصنام، بل بلغت به جرأته، وبيع نفسه لله أن كاد لهذه الأصنام، بأن استثمر فرصة خروج قومه إلى عيد لهم، فلم يخرج معهم متعلّلًا بـ ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ (الصافات: ٨٩) أي: قال: إني مريضٌ.

فما أن غادروا المدينة وخلا المكان، ذهب مسرعًا إلى آلهتهم المزعومة ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾ (الصفات: ٩١)

ووقف أمامهم وخاطبهم مستهزئًا: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ (الصافات: ٩١) أي: ألا تأكلون من هذا الطعام الموجود أمامكم؟ فقد ذكر: " أن قوم إبراهيم كانوا قد وضعوا بين أيديهم طعامًا قربانًا لتبارك لهم فيه."

(ابن كثير: ١٩٨٧)

ولمّا عجزت الأصنام عن إجابته قال: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ (الصافات: ٩٢) أي: ما لكم لا تجيبوني على سؤالي؟

قال أبو حيان: " وعَرْض الأكل عليهم واستفهامها عن النطق إنما هو على سبيل الهزء؛ لأنَّها منحطة عن رتبة عابديها إذ هم يأكلون وينطقون بخلافها." (محمّد الصابوني)

عندما عجزت هذه الآلهة المزعومة عن النطق أو الأكل، عندها: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ (الصافات: ٩٣) أي: فأقبل على الأصنام مستخفيًا يحطمها بيمينه[١]، قال البيضاوي: " وتقيده باليمين للدلالة على قوّته، وقوّة الآلة تستدعي قوّة الفعل، وقال القرطبي: خصّ اليمين بالضرب؛ لأنَّها أقوى والضرب بها أشدّ." (محمّد الصابوني)

---

(١) القول المشهور: أن إبراهيم – عليه السلام – حطّم هذه الأصنام بفأس كان معه، وهذا القول لا دليل عليه.

فكانت النتيجة: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٥٨) أي: كسّر الأصنام حتى جعلها فتاتًا وحطامًا، واستثنى من التفتيت عظيم الآلهة، لعلهم يرجعون إلى دين الله الحقّ المستقيم بعدما يتأكدون من عجز هذه الآلهة وضعفها.

تساؤل: هل الصنم الذي تركه إبراهيم كان كبيراً حقًّا؟!

الجواب: لا، الصنم الذي تركه إبراهيم لم يكن كبيراً أبدًا؛ لذا تأمّل هذا الاحتراز: ﴿كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ ولم يقل: كبيرًا من أصنامهم! فكلٌّ ممقوت عند الله لا يُطلق عليه كبيراً، وأي لفظ من ألفاظ التعظيم لا تكون كذلك إلّا على وجه إضافتها لأصحابها، ومن ذلك كتابة الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى كسرى، حيث قال: عظيم الفرس، وإلى قيصر قال: عظيم الروم.

◎ موقف قوم إبراهيم عندما شاهدوا تفتيت آلهتهم:

عندما رجع القوم إلى مدينتهم، وكانت من عاداتهم أن أوّل ما يقومون به عند دخولهم المدينة المبادرة إلى أصنامهم متبركين، فلمّا دخلوا على أصنامهم رأوا منظرًا هائلًا، رأوا الآلهة قطع متناثرة إلّا صنمهم الكبير.

لم يفزعهم منظر أشدّ من هذا المنظر، فقالوا بهذيان وغرور: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٩﴾ (الأنبياء: ٥٩) أي: "

إنَّ مَنْ حطّم هذه الآلهة لشديد الظلم عظيم الجرم؛ لجرأته على الآلهة المستحقّة للتعظيم والتوقير." (محمّد الصابوني)

وأخذوا يتراجعون الحَديث فيما بينهم: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ (الأنبياء: ٦٠) أي: تخاطبوا فيما بينهم أنَّ إبراهيم[١] هو الذي كان كثيرًا ما يعيبهم ويتوعدهم بقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (الأنبياء: ٥٧) فلعلَّه هو الذي حطّم الآلهة.

وهكذا انحصرت التهمة في إبراهيم، فقالوا في حنق وغضب: ﴿فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ (الأنبياء: ٦١) أي: قال أشراف القوم: احضروا إبراهيم بمرأى من الناس حتى يروه، والغرض من إحضاره حتى تكون محاكمته علانية؛ وليكون عقابه عبرة لمن يعتبر.

وهذا ما أراده إبراهيم؛ ليرى الناس الحقَّ ويشاهدوه، فيقيم على جميع عباد الأصنام الحُجّة البيّنة على بطلان ما هم عليه، كما قال موسى – عليه السلام – لفرعون: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ (طه: ٥٩)

وفي فعل إبراهيم هذا من بيع النفس لله ما لا يخفى!

---

(١) ذكرهم اسم (إبراهيم) كان بقصد الذمّ.

وبالفعل أحضروا إبراهيم وواجهوه بالتهمة: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ (الأنبياء: ٦٢) أي: هل أنت الذي حطّم هذه الأصنام يا إبراهيم؟ وغرضهم من هذا السؤال التقرير بأنه هو الفاعل.

ردَّ عليهم إبراهيم مستهزئًا: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ (الأنبياء: ٦٣) أي: الذي حطّمها هذا الصنم الكبير.

لطيفة: كان يكفي أن يقول إبراهيم لهم: (بل فعله كبيرهم) أو أن يقول لهم: (بل فعله هذا)، **فَلِمَ قال إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾**؟

قال عتيق: " وذلك تعريضاً بغباوة السائلين من قومه، وبأن الدافع على تكسير الأصنام هو غيظ إبراهيم من كبيرهم هذا الذي يخصونه بتعظيم أكثر." (عبد العزيز عتيق: ٢٠٠٠)

وقال حبنكة: " لكنه شعر أنهم أغبياء إذ يُدافعون عن آلهتهم من الأصنام التي حُطّمت ولم تستطع أن تدافع عن أنفسها، ولم يقنعهم تحطيمها بأنها لو كانت تملك لأنفسها أو لغيرها نفعاً أو ضرًّا لحمت أنفسها من التحطيم، ولمنعت مُحطمها من أن يجعلها جذاذاً."

(عبد الرحمن حبنكة: ١٩٩٣)

الحاصل: تفاجأ القوم بردّ إبراهيم، ووجدوا أنفسهم أمام معضلة في غاية الصعوبة، وهي تأكيدهم قوله بأنه لم يفعل ذلك، وأن الفاعل هو كبير الأصنام!! وبالتالي كيف تتصارع الآلهة حتى يغلب بعضها

بعضًا؟! وهل هناك تصارع بين الآلهة أساسًا؟ وهل؟ وهل؟ إلى غيرها من تساؤلات والتي ستصل بهم في النهاية إلى نتيجة مفجعة لهم، وهي: أن هذه الأصنام ليست بآلهة!!

وفي أثناء تفكيرهم في حلّ هذه المعضلة إذ بإبراهيم يزيد عليهم الموقف صعوبة أكثر، عندما قال لهم: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٣)

فعدم قدرتهم على النطق بالذي حدث، يدلُّ على أنها ليست آلهة، وإنما هي جمادات فحسب، فألزمهم الحُجّة الواضحة البيّنة، فرجعوا إلى عقولهم وفكروا بقلوبهم قائلين: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٤) فاعترفوا على أنفسهم أن هذه الأصنام جمادات ليست بآلهة، ولكنهم سرعان ما ارتدوا إلى باطلهم وكفرهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٥) أي: "قالوا في لجاجهم وعنادهم: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم، ولا تجيب! فكيف تأمرنا بسؤالهم، وهذا إقرار منهم بعجز آلهتهم."

(محمّد الصابوني)

حينئذ توجهت لإبراهيم الحُجّة عليهم، فقال موبخًا لهم: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦﴾ (الأنبياء: ٦٦) أي: أتعبدون جمادات لا تنفع ولا تضرُّ ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا

تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ (الأنبياء: ٦٧) أي: " قبحًا لكم ونتنًا للأصنام التي عبدتموها من دون الله." (محمّد الصابوني)

وجد قوم إبراهيم أن الغلبة في هذا الحوار لإبراهيم، فعدلوا عن لغة المخاطبة والمحاورة إلى استخدام لغة القوّة والبطش والمكابرة – كشأن جميع أهل الباطل والزيف – فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ٦٨) أي: " احرقوا إبراهيم بالنار انْتقامًا لآلهتكم ونصرة لها إن كنتم ناصريها حقًّا." (محمّد الصابوني)

◎ إبراهيم يُلقى في النار:

كان عقاب إبراهيم – عليه السلام – الأليم على ما ألحقه بآلهتهم المزعومة من التفتيت والهوان، أن أوقدوا نارًا عظيمة وألقوه فيها!!

ولله درُّك يا إبراهيم صابرًا، فقد أُختبر – عليه السلام – اختباراً عصيباً، حيث وجد نفسه في موقف صعب مهول، وجد نفسه محاطًا بنار عظيمة! فألجأ ظهر إلى الذي لا يغفل ولا ينام، لجأ إلى الله ذي القوّة التي لا تطال، فقال: حسبي الله ونعم الوكيل!!

خرجت هذه الاستغاثة من قلب مظلوم ملهوف، فأنّى لا يُستجاب لها، فجاء الأمر الإلهي إلى النار: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ

﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ (الأنبياء: ٦٩) أي: قلنا: يا نار كوني – بقدرتنا وأمرنا – ذات برد وذات سلام على إبراهيم.[١]

وتأمّل – يا رعاك الله –: زاد الله تعالى كلمة ﴿وَسَلَٰمًا﴾ بقصد المبالغة في حفظ إبراهيم، قال ابن عباس: " لو لم يقل الله: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لأذى إبراهيم بَرْدها." (القرطبي: ٢٠٠٢)

---

(١) يذكر بعض المفسرين: أنَّ جميع النيران على وجه الأرض بعدما قال الله: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ فقدت خاصّية الإحراق! وما ذكروه فيه نظر؛ لأنّ المنادى في الآية " **يا نارُ**" نكرة مقصورة، فالمخاطب فيها هذه النار دون غيرها؛ **لذا الصحيح:** أن خاصّية الإحراق سُلبت من هذه النار فقط معجزة لإبراهيم، والله أعلم.

وإن قيل: كيف خاطب الله النار مع أنها لا تعقل؟

قال الأنصاري: " خِطاب التحويل والتكوين، لا يختصُّ بمَنْ يعقل، قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ (سبأ: ١٠)، وقال: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ (فصلت: ١١)"

(زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

وهكذا نجّى الله تعالى إبراهيم من كيدهم وشرّهم بمعجزة باهرة، قال تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ٩٨﴾ (الصافات: ٩٨) أي: " أرادوا المكر بإبراهيم واحتالوا لإهلاكه فنجيناه من النار، وجعلنهم الأذلّين المقهورين؛ لأنّه لم ينفذ فيه مكرهم." (محمّد الصابوني)

وقال تعالى: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾

(الأنبياء: ٧٠)

لطيفة: قال تعالى في سورة الصافات: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ (الصافات: ٩٨)، بينما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٠) فما السرّ في ذلك؟

قال الأنصاري: " في الصافات: تقدمه ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا

فَأَلۡقَوۡهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾ (الصافات: ٩٧) فأججوا نارًا عظيمة، وبنوا بنيانًا عظيمًا، ورفعوا إبراهيم إليه، ورموه منه إلى أسفل، فرفعه الله إليه، وجعلهم في الدنيا من الأسفلين، وردّهم في العقبى أسفل سافلين، فناسب ذكر الأسفلين.

أمّا في سورة الأنبياء ما تقدمه أن إبراهيم كادهم، وأنهم كادوه، وأنه غلبهم في الكيد، فخسرت تجارتهم حيث كسّر أصنامهم، ولم يبلغوا من إحراقه مرادهم، فناسب ذكر الأخسرين." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

هذا هو خليل الرحمن إبراهيم الذي ضرب القَدح المُعلّى في التضحية والفداء والإخلاص، وبيع النفس رخيصة لله، واحتمال كل أذى، حتى وإن كان التحريق بالنار، فليس عجيبًا إذن ما أثنى الله به عليه في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

(النحل: ١٢٠– ١٢٣)

فهنيئًا لك يا إبراهيم!!

فقد اتّخذك الله خليلًا، وجعلك أمّة (أي: إمامًا وقدوة)، وجعلك جامعًا لجميع خصال الحقّ والخير، وحنيفًا (أي: مائلًا عن كل دين باطل إلى

الدين الحقّ المستقيم)، وجعلك في الآخرة من أصحاب الدرجات الساميّة، وفي أعلى مقامات الصالحين، وأمر النبيَّ الأميَّ محمّدًا – صلى الله عليه وسلم – باتّباع ملّتك الحنيفيّة السمحة.

فأنعم بخليل الرحمن!!

فأنعم بشيخ الأنبياء!!

فأنعم بأبي الأنبياء!!

◎ زواج إبراهيم – عليه السلام – بسارة:

عندما شبَّ إبراهيم – عليه السلام – عن الطوق، وصار في مبلغ الرجال، تزوج بامرأة طيبة اسمها سارة[١]، عاش معها إبراهيم حياة أسريّة هادئة هانئة، فكانت نعم الزوجة الصالحة المعينة لزَوْجها على مشاق الحياة، ولمّا أُرسل إبراهيم – عليه السلام – آمنت به وصدقته، وتحملت معه متاعب الدعوة، وواسته بكلامها، وهونت عليه ممّا يلاقي من قومه.

---

(١) **تنويه:** ذهب بعض أهل العلم إلى نبوّة ثلاث نسوة: سارة وأم موسى ومريم، ولكن الصحيح والذي عليه الجمهور إنهن صدّيقات رضي الله عنهن وأرضاهن.

◎ هجرة إبراهيم – عليه السلام – إلى الشام ثم مصر:

خرج إبراهيم – عليه السلام – من بين أظاهر قومه مهاجراً في سبيل الله، ومعه زَوْجه المؤمنة سارة وابن أخيه المؤمن لوط إلى الشام، قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ (العنكبوت: ٢٦)

قال المفسرون: " هاجر من سواد العراق إلى فلسطين في الشام ابتغاء إظهار الدين والتمكن من نشره." (محمّد الصابوني)

والذي يبدو أن هذه الهجرة قد حدثت بعد خروج إبراهيم من النار بسلام، والله أعلم.

وبذلك يعدُّ إبراهيم أوّل مهاجر في سبيل الله، بينما يعدُّ محمّد أعظم مهاجر في سبيل الله تعالى عليهما الصلاة والسلام.

على كل حال: وصل ثلاثتهم (إبراهيم وسارة ولوط) إلى الشام، ومكثوا فيه ما شاء الله أن يمكثوا، ثم ارتحل إبراهيم وسارة إلى مصر، بينما بقي لوط في الشام.

وأثناء سير إبراهيم وسارة في أرض مصر، أبصرهما بعض خوّاص ملك مصر، وكان هذا الملك جبّارًا عنيدًا كافرًا، فأسرع إلى ملكه قائلاً: إن ها هنا – في بلادك – رجلًا معه امرأة من أحسن الناس، فقد كانت سارة من أجمل النساء على الإطلاق.

ولمّا حضرت سارة أمام هذا الملك الجبّار العنيد الكافر ووقع نظره عليها، فشاهد أجمل النساء، فأرادها على نفسها، وها هي القصّة كما جاءت في الحديث الصحيح:

" بينا هو ذاتَ يومٍ وسارةُ، إذ أتى على جبّارٍ من الجبابرة، فقيل له: إنَّ ها هنا رجلاً معه امرأةٌ من أحسنِ الناس، فأرسلَ إليه، وسأل عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي.

فأتى سارةَ، قال: يا سارةُ، ليس على وجهِ الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك، وإنّ هذا سألَني فأخبرُتُه أنّك أختي فلا تُكَذِّبيني.

فأرسلَ إليها، فلمّا دخلت عليه ذهبَ يتناولُها بيده، فأُخِذَ، فقال: ادْعي الله لي ولا أضُرُّك، فدعتِ اللهَ فأُطْلِقَ.

ثم تناولَها الثانيةَ فأُخذ مثلَها أو أشدَّ، فقال: ادْعي اللهَ لي ولا أضُرُّك، فدعت فأُطلق، فدعا بعضَ حجبته، فقال: إنّكم لم تأتوني بإنسان، وإنما أتيتموني بشيطان، فأَخْدَمَها هاجرَ.

فَأَتَتْهُ وهو قائمٌ يصلّي، فَأَوَمأَ بيده: مَهْيا (أي: ما خبرك؟)، **قالت: ردَّ الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره، وأَخْدَمَ هاجرَ."**

(رواه البخاري: (٣٣٥٨)، ومسلم: (٢٣٧١))

قال الكحلوت: " وفي هذا الحَديث معجزة ظاهرة لإبراهيم صلى الله عليه وسلم، وفيه مشروعية أخوة الإسلام، وجواز قبول صلة الملك

الظالم، وقبول هدية المشرك، وإجابة الدعاء بإخلاص النيّة، وكفاية الربّ لمن أخلص الدعاء بعمله الصالح، وفيه ابتلاء الصالحين لرفع درجاتهم." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

زيادة وتفصيل:

١. **لِمَ أخبر إبراهيم عن سارة أنها أخته؟**

لأنهم لو علموا أنها زَوْجه سيقتلونه ليتخلصوا منه.

٢. **قول إبراهيم: " ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك. " هل يتعارض مع أن لوطاً كان مؤمناً معهما؟!**

لا يوجد تعارضٌ إن شاء الله؛ لأنّ إخبار إبراهيم ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك إنما يقصد به في أرض مصر، ولوط – عليه السلام – بقي في الشام.

٣. **ما المقصود بأخدمها هاجر؟**

أي: " وهبها لها لتخدمها؛ لأنه أعظمها أن تخدم نفسها." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

◎ زواج إبراهيم – عليه السلام – بهاجر:

كان إبراهيم متشوقًا لذرّيّة صالحة تنهض بهذا الدين من بعده، ولمّا كانت سارة زوج إبراهيم عاقراً، فوهبته هاجر؛ لتكون له زوج؛ لعلَّ الله تعالى يرزقه منها بولد.

وبالفعل تزوج إبراهيم هاجر، وأنعم الله عليه منها بغلام حليم سمّاه إسماعيل، وهب الله الكريم خليله إبراهيم هذا الغلام على كبر سنّ إبراهيم، فكانت فرحته به لا توصف.

◎ هجرة إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى أرض فاران (الحجاز):

مكث إبراهيم قرير العين مع أسرته الجديدة في الشام ما شاء الله أن يمكث، حتى جاءه الأمر الإلهي بأن يخرج بهاجر وإسماعيل إلى أرض فاران (الحجاز)، وكانت بلاد فاران (الحجاز) في ذلك الزمن السحيق مكاناً موحشاً قفراً، حيث لا يوجد به ساكن ولا مسكن، ولا زرع ولا نبات.

ورغم ما في هذا الأمر من الصعوبة والمشقة على نفس إبراهيم إلّا أنه انقاد لأمر ربّه، ولم ينفذه وحسب، بل نفذه وهو راضي النفس، فذهب إبراهيم بزَوْجه الثانية هاجر وابنه إسماعيل إلى حيث أمره الله إلى أرض فاران (الحجاز)، وما أن وطئت أقدامهما أرض هذا المكان، حتى همّ إبراهيم بالرحيل وتركهما بمفردهما، وبشفقة الأب، ورحمة الزوج زودهما بسقاء فيه ماء، وجراب فيه تمر، وكان هذا كل ما في وسع إبراهيم فعله لهما!!

ولمّا ولّى إبراهيم ظهره راحلاً تعلقت هاجر بثيابه قائلة: يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ها هنا؟ وليس معنا ما يكفينا من طعام أو شراب! وليس ها هنا من أحد!!

لم يجبها، ومضى في طريقه!!

فلمّا ألحت عليه – وهو صامت لا يجيبها – قالت له: آلله أمرك بهذا؟

هاجر الزوجة المؤمنة توقعت بفراستها أن هذا العمل الخارج عن دائرة الالتئام الأسري ما يكون إلا بأمر من الله؛ لذا سألت زَوْجها هذا السؤال؟!

وكما توقعت هاجر، أجاب إبراهيم: نعم!

وتأمّل – يا رعاك الله –: ترك إبراهيم فلذة كبده إسماعيل، وأنيس روحه هاجر في صحراء الحجاز القاحلة بمفردهما استجابة لله!!

لله درّك يا إبراهيم نبيًّا مطيعًا!!

ولمّا تولّى عنهما، وقف إبراهيم بحيث لا تراه زَوْجه هاجر، رافعًا أيدي الضراعة، ومبتهلًا قائلًا: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (إبراهيم: ٣٧)

وقد استجاب الله دعاء خليله إبراهيم، فحفظ أسرته، وأنعم عليهما بأن جعل هذا المكان القفر الموحش، مثابة للناس وأمناً، يأتيه الناس من كل فجّ عميق، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

زيادة وتفصيل:

١. قال إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾، ولم يقل: " أسكنت ذريّتي" **فما الذي أفاده حرف الجر (من)؟**

الجواب: أفاد التبعيض، إذ ليس كل ذرّيّته أسكنهم هذا الوادي، إنما هو إسماعيل، أمّا إسحاق فقد بقي بالشام.

٢. قال تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ **ما الذي أفاده حرف الجر (من)؟**

الجواب: قال ابن عباس وغيره: " لو قال (أفئدة الناس) لازدحمت عليه فارس والروم والناس كلهم، ولكن قال: " من الناس" فهم المسلمون." (محمّد الصابوني)

٣. **لِمَ خصَّ إبراهيمُ الصلاةَ بالذكر من بين سائر العبادات؟**

خصَّ إبراهيم الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات، لمزيد من فضلها، ولكمال العناية بشأنها.

◎ نِعَمُ الله على هاجر وإسماعيل في أرض الحجاز:

استسلمت هاجر لأمر ربّها، ومكثت مترقبة خائفة في هذا المكان الموحش بلا أنيس أو جليس، وكلما أحسّت بالعطش أو الجوع، أخذت تشرب من الماء، وتأكل من التمر اللذينِ تركهما لها زَوْجها إبراهيم، حتى

نفدا، فعطشت عطشاً شديداً، وجاعت جوعاً أكيداً، أمّا رضيعها فلم يكن أحسن حالاً منها، فقد أخذ الجوع والعطش يعتصره عصرًا شديداً.

وكان منظر رضيعها وهو يتلّوى عطشًا وجوعًا، أكثر ما أفزعها، حتى أنساها ما بها من جهد وتعب وجوع وعطش، فأخذت تهرول يميناً ويساراً، لعلَّها ترى إنساناً، أو تجد مغيثاً، وهي الجوعى والعطشى والمجهدة!

فصعدت أقرب جبل إليها بالرغم من شدّة الإعياء الذي ألّم بها، صعدت الجبل المعروف اليوم بجبل الصفا، صعدته وعينها مشتتة بين رضيعها الموجود في بطن الوادي، وبين قمّة الجبل، حتى وصلت أعلى الجبل بعد جهد جهيد وتعب أكيد، فالتفتت ذات اليمين وذات اليسار لعلّها ترى أحدًا، لكنها لم تر من أحد، فنزلت من أعلى الصفا وهي مسرعة وجلة على رضيعها أن يمسّه سوء، حتى وصلت بطن الوادي حيث يوجد رضيعها، فما أن وصلت بطن الوادي حتى رأت جبلاً آخر، وهو المعروف اليوم بجبل المروة، فصعدت عليه، غير مهتمة بتعبها وجوعها وعطشها، وما أن وصلت إلى أعلى الجبل حتى جالت بنظرها يمنة ويسرة، ولكنها لم تعثر على شيء أيضًا، ولشدّة خوفها على رضيعها كرّرت ذلك العمل الشاقّ سبع مرّات، لعلَّها تجد مغيثاً.

قال صلى الله عليه وسلم:" **فذلك سعيُ الناسُ بينهما.**" (رواه البخاري: ٣٣٦٤)

ودائماً الفرج يأتي عند اشتداد الكرب، والعسر لا بدَّ أن يتبعه اليسر، فلمّا أتمّت هاجر سبع مرّات في الصعود والنزول، إذ بها تسمع صوتاً يقول: قد جاءك الغوث، فإذا بملك (وهو جبريل عليه السلام) عند ابنها **فقال لها جبريلُ: " من أنتِ؟ قالت: أنا هاجرُ أمّ ولد إبراهيم، قال: فإلى من وكلكما؟ قالت: إلى الله، قال: وكلكما إلى كافٍ.**" (رواه البخاري: ٣٣٦٤)، فبحث في الارض بعقبه أو جناحه، فظهر الماء.

رأت هاجر الجوعى والعطشى الماء، رأت نجاتها ونجاة رضيعها، فلا يمكن وصف فرحتها، فحمدت ربّها، التي أحسنت فيه ظنّها.

ومن شدّة فرحها وحرصها على هذا الماء، أخذت تحوطه لئلا يسيح، وتغرف منه في سقائها، وهو يفور بعدما غَرَفَتْ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **رحمَ اللهُ أمَّ إسماعيلَ لولا أنها عَجِلَتْ؛ لكانت زَمْزَمُ عيْناً مَعيناً.**" (رواه: البخاري: (٣٣٦٤)، وأحمد: (٣٣٩٠) واللفظ له) أي: لو تركت هاجر زمزم لم تحوطها ولم تغرف منها؛ لصارت زمزم عيناً جارية على وجه الأرض.

قال ابن عباس: " **فشَرِبَتْ وأرضعتْ ولدَها، فقال جبريل: لا تخافوا الضيعةَ، فإنَّ هاهنا بيتَ الله يبني هذا الغلامُ وأبوه، وإنَّ اللهَ لا يضيعُ أهلَهُ.**" (رواه البخاري: ٣٣٦٤)

وبالفعل لم يضيع الله أهله خليله، فبعد أن أنبع الله لهما زمزم مرّت قبيلة من قبائل العرب، يقال لهم: جُرهم، على هاجر، فعرضوا عليها أن ينزلوا عندها، فوافقت على أن يكون لابنها الماء، وأقاموا عندها على ذلك، فتمت عليها النعمة، وتحققت أمنية زَوْجها، واستجيب دعاؤه.

◎ قصّة الذبيح:

أقامت هاجر وابنها إسماعيل في أرض الحجاز ما شاء الله أن يقيموا، ولمّا كبر إسماعيل وشبَّ عن الطوق، وكان أبوه يأتي لزيارتهما بين الحين والحين؛ ليطمئن على أحوالهما، وفي إحدى هذه المرّات التي كان يزورهما فيها، رأى في المنام ما يوجب ذبح ولده إسماعيل، أو أنه رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل، ورؤيا الأنبياء حقٌّ، وهي من باب الوحي.

يا لهذا الابتلاء العظيم!!

فبعد أن أُبتلي إبراهيم بالطلب منه أن يهاجر بزَوْجه وابنه إسماعيل إلى صحراء مكة، حيث المكان القفر، يبتلى الآن بأنْ يذبح بكره إسماعيل.

ومتى أُبتلي بذلك؟ ابتلي بذلك بعدما بلغ إسماعيل سنًّا يكون – في الغالب – قد تمكن حبّه من قلب أبيه إبراهيم، فعندما يكبر الولد ويصير في مصالح أبيه يتعلق الأب بابنه أكثر وأكثر، وهذا واقع ومشاهد!!

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ أي: فلما شبَّ وصار في مصالحه ومصالح أبيه أُمر بأنْ يذبحه.

ولعلَّ السرَّ في كون الأمر الإلهي منامًا لا يقظة حتى تكون مبادرة إبراهيم إلى الامتثال أدلّ على كمال الانقياد والإخلاص.

على كل حال قام إبراهيم من فوره، وذهب يقصّ رؤياه على ابنه ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ (الصافات: ١٠٢)

وهذا من حكمة إبراهيم ورحمته أنه عرض هذا الأمر على ابنه إسماعيل؛ ليختبر صبره؛ وليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يُؤخذ قسراً، ويُذْبح قهراً، حيث قال له: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ (الصافات: ١٠٢)؟!

هل كانت مشاورة إبراهيم لابنه إسماعيل ليرجع لرأيه؟

الجواب: لا، قال الأنصاري: " لم يشاوره ليرجع إلى رأيه؛ لأنّ أمر الله حَتمٌ، لا يختلف الأنبياء عنده، بل ليختبر صبره، وليوطّن نفسه للذبح، ولتكن (سُنّة) في المشاورة، فقد قيل: لو شاور آدم – عليه

السلام – الملائكة في أكل الشجرة، لمّا صدر منه ما صدر." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

الحاصل: ما كان من هذا الغلام الحليم سرّ والده الخليل إبراهيم، إلّا التسليم، بل حثَّ أباه على تنفيذ ما أمره العزيز الحكيم به، فقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢) أي: امض لمّا أمرك الله به من ذبحي، فلن تجدني إلّا صابرًا محتسبًا.

قال الصابوني: " وهذا جواب من أوتي الحلم والصبر وامتثال الأمر، والرضى بقضاء الله." (محمّد الصابوني)

وتأمّل – وفقك الله للحق –: ردّ إسماعيل – عليه السلام – أليس فيه سمو الأدب؟!

بلى، قمّة الأدب في ردّ إسماعيل، حيث قدّم مشيئة الله تعالى، واستعان بالله أن يجعله من الصابرين على هذا البلاء!!

ثم تأمّل ثانية: متى قال إسماعيل هذا الكلام قاله وهو صغير!! لذا من الخطأ الظنّ أن الصغار لا يفهمون مثل هذه المعاني!!

نعود – والعود أحمد – إلى ابتلاء إبراهيم وإسماعيل، حيث لم يتوقف البلاء عند هذا الحدّ، على رغم ما أبداه إبراهيم وإسماعيل من خضوع وتسليم، بل اِسْتَمَرَّ البلاء، وأخذ يشتدُّ أكثر وأكثر، حيث أضجع

إبراهيم ولده للذبح، وشحذ سكينه، وعزم على ذبحه عزماً أكيداً: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ (الصافات:١٠٣) أي: فلمّا استسلما – الأب والابن – لأمر الله، وصرع إبراهيم ابنه على وجهه ليذبحه.(١)

عندئذ نادى العزيز الرحيم: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ (الصافات: ١٠٤–١٠٥) أي: نجحت يا إبراهيم في الاختبار.

لطيفة: قال الله تعالى لإبراهيم: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ مع أن تصدّيقها إنما يكون بالذبح، ولم يوجد ذلك منه بعد!!

وذلك لأنّ إبراهيم فَعَلَ ما في غاية وسعه فعله ممّا يقوم به الذابح من إلقاء ولده، وإمرار السكين على حلقه، لكن الله منعها أن تقطع.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾ (الصافات: ١٠٥) تعليل لتفريج الكربة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾ (الصافات: ١٠٦) أي: " هذا لهو الابتلاء الذي يتميّز به المخلص من المنافق." (محمّد الصابوني)

وتأتي المنُّ في المحنّ ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ (الصافات: ١٠٧)!

---

(١) وذُكر: أن إبراهيم أراد أن يذبح إسماعيل من قفاه لئلا يشاهد وجهه في حال ذبحه، والله أعلم بصحة ذلك!!

وليس ذلك وحسب، بل رفع الله قدر إبراهيم وإسماعيل، وجعل ذبح الأنعام سنّة يُتقرب بها إلى الله إلى يوم الدين، ينال إبراهيم ثواب من يفعلها من الآدميين.

وأيضًا مُنح إبراهيم وسامًا إلهيًّا رفيعاً: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٨) أي: صار لإبراهيم الثناء الجميل الحسن إلى قيام الساعة، فما من أمّة إلّا وتثني عليه خيراً، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ (الصافات: ١٠٩)

تساؤلان:

١. **هل هناك علاقة بين رمي الجمرّات في مناسك الحج وقصّة ذبح إسماعيل؟**

ذكر جَمْعٌ من أهل العلم أن الحكمة من رمي الجمرّات في مناسك الحج: أنه لمّا عرض الشيطان لإبراهيم – عليه السلام – حين أراه الله ذبح ابنه إسماعيل فرماه بسبع حصيات، فالناس ترمي الجمار لذلك، وما ذكروه ينقصه الدليل الصحيح، فما رووه لا يتعد آثار ضعيفة لا تقوم بها الحُجّة على هذا القول.

وعليه الصواب: إن الحكمة من رمي الجمار ليس ما ذكروه، وإنما إعلان لعداوة الشيطان.

٢. لِمَ طلب الله تعالى من خليله إبراهيم أن يذبح ابنه إسماعيل – عليهما السلام – في الأساس؟

قال الصابوني: " إبراهيم اتّخذه الله خليلًا، فلمّا سأل ربَّه الولد ووهبه له فتعلقت شعبة من قلبه بمحبّة ولده، فأُمر بذبح المحبوب؛ لتظهر صفاء الخلّة، فامتثل أمر ربّه، وقدم محبّته على محبّة ولده." (محمّد الصابوني)

◉ هل إسحاق هو الذبيح؟

قال أبو شبهة: " روى كثير من المفسرين، منهم ابن جرير، والبغوي، وصاحب الدرّ المنثور، في هذا روايات كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين وكعب الأحبار: أن الذبيح هو إسحاق."

(محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وقال: " ولم يقف الأمر على الموقوف على الصحابة والتابعين، بل رفعوا ذلك زورًا إلى النبي صلى الله علبه وسلم."

(محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

فقد روى ابن جرير بسنده عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " **الذبيح إسحاق.**" (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

قال أبو شبهة: " وهذا الحَديث ضعيفٌ ساقطٌ لا يصحُّ الاحتجاج به." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وأخرج الدليلمي بسنده عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إن داود سأل ربّه مسألة، فقال: اجعلني مثل إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فأوحى الله إليه: إني ابتليت إبراهيم بالنار فصبر، وابتليت إسحاق بالذبح فصبر، وابتلي يعقوب بالعمى فصبر."**
(محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وهذا الحَديث – أيضًا – لا يصحُّ ولا يثبت.

قال أبو شبهة: " والحقُّ: أن المرويات في أن الذبيح إسحاق هي من إسرائيليّات أهل الكتاب، وقد نقلها من أسلم منهم، ككعب الأحبار، وحملها عنهم بعض الصحابة والتابعين تحسينًا للظنّ بهم، فذهبوا إليه، وجاء بعدهم العلماء فاغتروا بها، وذهبوا إلى أن الذبيح إسحاق."

(محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وقال: " وحقيقة هذه المرويات، أنها من وضع أهل الكتاب؛ لعداوتهم المتأصلة من قديم الزمان للنبي الأمي العربي، فقد أرادوا ألّا يكون لإسماعيل الجدّ الأعلى للنبي والعرب فضل أنه الذبيح حتى لا ينجز ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإلى الجنس العربي."

(محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

ولأجل ذلك حرفوا التوراة، فبدّلوا لفظة إسحاق بإسماعيل، ولمّا كانت آفة الكذب النسيان، فقد غفلوا عن كلمة كشفت كذبهم ودسّهم المشين.

قال أبو شبهة: " ففي التوراة: (الإصحاح الثاني والعشرين، فقرة: (٢)): فقال الربّ: خذ ابنك وحيدك الذي تحبّه إسحاق، واذهب إلى أرض المربا، واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك ... ." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وقال أيضًا: " وليس أدلّ على كذب هذا، من كلمة (وحيدك) وإسحاق – عليه السلام – لم يكن وحيده قطّ! لأنه ولد ولإسماعيل نحو أربع عشرة سنة كما هو صريح توراتهم في هذا، وقد بقي إسماعيل – عليه السلام – حتى مات أبوه الخليل، وحضر وفاته، ودفنه، وإليك ما ورد في هذا:

ففي سفر التكوين: (الإصحاح السادس عشر الفقرة: ١٦) ما نصّه:

وكان أبرام – يعني إبراهيم – ابن ست وثمانين سنة، لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

لذا الصحيح: أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وما ورد عن النبي أن الذبيح إسحاق، قد بان لك أنه إمّا ضعيف وإمّا موضوع.

قال أبو شبهة: " وما ورد عن الصحابة أو التابعين – إن صحّ سنده إليهم – هو من الإسرائيليّات التي رواها أهل الكتاب الذين أسلموا، وهي في الأصل من دسّ اليهود، وكذبهم، وتحريفهم للنصوص حسداً للعرب، ولرسول العرب، قاتلهم الله أنى يُؤفكون." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

قال ابن كثير: " (والذبيح هو إسماعيل) هو الظاهر من القرآن، بل كأنه نصٌّ على الذبيح هو إسماعيل؛ لأنه ذكر قصّة الذبيح، ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الصافات: ١١٢) ومن جعله حالاً فقد تكلف." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وقال ابن كثير: " وما أحسن ما استدلَّ به ابن كعب القرظي على أن الذبيح هو إسماعيل، وليس بإسحاق من قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ (هود: ٧١)

وقال: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد؟ هذا لا يكون؛ لأنه يناقض البشارة المتقدّمة، والله أعلم." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وذكر ابن القيم عشرة وجوه تدلّ على بطلان أن الذبيح هو إسحاق، منها:

١. إن بكره ووحيده هو إسماعيل باتّفاق الملل الثلاث، فالجمع بين كونه مأمورًا بذبح بكره، وتعيينه بإسحاق جمع بين النقيضين.

٢. إن قصّة الذبيح كانت بمكة قطعاً، ولهذا جعل الله تعالى ذبح الهدايا والقرابين بمكة، تذكيراً للأمّة بما كان من قصّة أبيهم إبراهيم مع ولده.

٣. إن إبراهيم – عليه السلام – لم يَقْدم بإسحاق إلى مكة ألبتة، ولم يفرق بينه وبين أمّه، وكيف يأمره الله تعالى أن يذهب بابن امرأته، فيذبحه بموضع ضُرّتها في بلدها، ويدع ابن ضُرّتها؟! (ابن القيم: ٢٠٠٢)

وأمّا ما قاله السهيلي: " أنّ الذبيح هو إسحاق احتجاجاً بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ (الصافات: ١٠٢)، وإسماعيل لم يكن عنده، وإنما كان في حال صغره هو وأمّه بجبل في مكة، فكيف يبلغ معه السعي؟!" (ابن كثير: ١٩٨٧)

قال ابن كثير: " وهذا فيه نظر؛ لأنه قد رُوي أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكباً البراق إلى مكة، يطلع على ولده ثم يرجع، والله تعالى أعلم." (ابن كثير: ١٩٨٧)

الحاصل: قال أبو شبهة: " وتحيّر بعضهم في الروايات، فتوقّف، كالسيوطي، وحاول بعضهم الجمع بينها فزعم أن الذبح وقع مرّتين، والحقُّ: ما وضحناه لك (أنّ الذبيح هو إسماعيل) فلا تجوّز، ولا تتوقّف، ولا تقل بالتكرار، والله الهادي إلى الحقّ." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

◎ مولد إسحاق عليه السلام:

كانت سارة عاقرًا وكبيرة في السنّ، وكان زَوْجها إبراهيم شيخًا كبيرًا، ورحمة من الله تعالى بها، رزقها – رغم كل هذه الموانع – غلامًا عليماً،

رزقها الله بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ (هود: ٧١)

وقد جاء ذكر مولد إسحاق – عليه السلام – في القرآن الكريم في معرض البشارة به، وذلك أثناء مرور الملائكة الكرام بإبراهيم وسارة مجتازين ذاهبين إلى قرى قوم لوط؛ ليدمّروها عليهم لكفرهم، وفجورهم، وقد كان هؤلاء الملائكة ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقد ظنّهم الخليل في البداية أضيافاً، فعاملهم معاملة الضيوف، فشوى لهم عجلاً سميناً من خيار بقره.

قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾﴾ (الذاريات: ٢٤ – ٢٦)

قرب الخليل الطعام إليهم، وعرضه عليهم، قال تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ (الذاريات: ٢٧)، ولكنه لم يرَ لهم هِمّة إلى الأكل بالكلّيّة؛ لأنّ الملائكة ليس فيها قوّة الحاجة إلى الطعام، فنكرهم إبراهيم وأوجس منهم خيفة، حيث كان في زمنهم الأوّل إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنّوا به شرًّا، عند ذلك أسفرت الملائكة عن هويتهم الشريفة وسبب مجيئهم: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ (هود: ٧٠)

وعلى عادت العرب وغيرهم كانت سارة قائمة عند رؤوس الأضياف؛ لتقدّم لهم خدمة الضيف، فلمّا سمعت سبب مجيء الملائكة ضحكت استبشاراً وغضباً لله على قوم لوط، ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ﴾ (هود: ٧١)

فجزاها الله على غضبها له بأن بُشرت ببشرى طالما تمنّتها، بُشرت بأنها ستكون أُمًّا لغلام، ولأي غلام غلام طاهر عليم، وأن هذا الغلام سيشبُّ ويولد له ابناً اسمه يعقوب، ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ (هود: ٧١)

تفاجأت سارة بالخبر، فقد كانت في حالة من الكبر والعقم تجعل ذلك أمراً مستحيلاً، ودفعتها الحالة الشعوريّة التي سيطرت عليها عقب سماعها هذه البشرى أن تصرخ ضاربّة وجهها بيديها من فرط تعجبها ودهشتها، ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾[1] (الذاريات: ٢٩)

وتساءلت مندهشة: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ (هود: ٧٢) أي: كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيمة وهذا بعلي شيخاً كبيراً؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ (هود: ٧٢)!!

---

(١) الصرُّ هو: الصيحة والضجة.

ردَّ الملائكة على تساؤل سارة وتعجبها: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ (هود: ٧٣) أي: " أتعجبين من قدرة الله وحكمته في خلق الولد من زوجين هرمين؟ ليس هذا بمكان عجب من قدرة الله." (محمّد الصابوني)

وقال الملائكة: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ (هود: ٧٣) أي: إن لم يكافئ الله أهل بيت خليله إبراهيم فمن يكافئ؟! إنها رحمة الله وبركاته على هذا البيت الطاهر الطيب.

وأكمل الله النعمة على إبراهيم وسارة بأن وُلِدَ يعقوب في حياتهما، فقرّت أعينهما بيعقوب كما قرّت بوالده إسحاق، قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾[1] (الأنبياء: ٧٢)

إشكال: كيف ذكر الله تعالى في معرض الامتنان من أولاد إبراهيم: إسحاق يعقوب، ولم يذكر معهما إسماعيل، بل أخرّه عنهما بدرجات، مع أنه أكبر منهما؟

الجواب: قال الأنصاري: " لأنّ القصد هنا ذكر أنبياء بني إسرائيل، وهم بأسرهم أولاد إسحاق، وإسماعيل لم يخرج من صلبه نبيٌّ إلّا محمّد صلى الله عليه وسلم." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

أو لأنّ إسحاق وهبه الله تعالى من سارة، وكانت عجوزًا وعقيمًا، فكانت المنّة أوضح، فذكره تعالى، والله أعلم.

---

(١) النافلة: ولد الولد.

◎ قصّة زواج إسماعيل:

شبَّ إسماعيل – عليه السلام – في أرض الحجاز وصار شاباً طاهراً خَلْقًا وخُلْقًا، ممّا دفع قبيلة جُرهم إلى الإعجاب بعُلُوّ همّته، وكماله، وأخلاقه، فزوجوه بامرأة منهم، وفي أثناء هذه الفترة ماتت هاجر رضي الله عنها وأرضاها.

جاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل؛ ليطمئن على حال ابنه، فلم يجده، فسأل زَوْجه عن حالهما، فشكّت له عيشتهما.

فقال لها: إذا جاء زوجك فاقرئيه مني السلام، وقولي له: غيّر عتبة بابك!!

وذهب إبراهيم دون أن يقابل إسماعيل، وذلك لحكمة أرادها الله.

ولمّا حضر إسماعيل كأنه أحسّ شيئًا، فسأل زَوْجه، فأخبرته بما جرى مع هذا الشيخ، وأخبرته بما قال: غيّر عتبة بابك.

فقال: ذاك أبي، وأنتِ العتبة، الحقي بأهلك، وطلّقها.

ثم تزوج إسماعيل بغيرها.

عاد إبراهيم – عليه السلام – مرّة ثانية، ولم يجد إسماعيل أيضاً، فسأل زَوْجه الثانية عن حالها، فأخبرته: أنهما في نعمة وخير.

فقد كانت امرأة طيبة وشاكرة لزَوْجها.

فقال لها: عندما يأتي زوجك، فاقرئيه مني السلام، وقولي له ثبّت عتبة بابك.

عاد إسماعيل، فقال: هل جاءكم من أحد؟

فقالت: جاءنا شيخ وذكرت صفته.

فقال: هل قال لكم من شيء؟

فقالت: سألنا عن عيشنا، فأخبرته إنّا في نعمة، وأثنيتُ على الله خيرًا.

فقال: فما قال؟

قالت: هو يقرئك السلام، ويأمرك أن تثبّتَ عتبة بابك.

فقال: ذاك أبي، وأنتِ العتبة أمرني أن أمسكك.

وتدلُّ هذه القصّة على مدى حرص إبراهيم على ولده، وتدلّ كذلك على فطنة إسماعيل وذكائه.

○ قصّة بناء الكعبة:

عاد إبراهيم مرّة ثالثة إلى أرض الحجاز، وفي هذه المرّة قابل ابنه إسماعيل – عليهما السلام – ووجده يبري نبلاً عند زمزم، فلمّا رآه إسماعيل قام إليه، وفعل ما يفعل الابن بأبيه، والأب بابنه من الشوق والحنين والحنان.

بعد ذلك خاطب إبراهيم – عليه السلام – ابنه قائلاً: يا إسماعيل، إن الله أمرني أن أبني ها هنا – وأشار إلى كثبة – بيتاً ليكون معبداً للخلق إلى يوم القيامة ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ

بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الحج: ٢٦)

فما كان من الابن البار إلّا الموافقة السريعة، وبدأا ببناء أوّل بيت لله في الأرض[١]، فأخذا يرفعان القواعد من البيت، حيث كان إسماعيل يحضر الحجارة، وإبراهيم يبني، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ﴾!

وتأمّل: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ﴾ حيث " ورد التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي؛ ولذلك وجه معروف في محاسن البيان، وهو استحضار الصورة الماضية وكأنها مشاهدة بالعيان، فكأن السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع، والبنّاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قال ابو السعود: وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة."
(محمّد الصابوني)

---

(١) فعن أبي ذر قال: " قلتُ يا رسولَ الله، أيُّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض أوّلَ؟ **قال: المسجدُ الحرامُ، قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: المسجدُ الأقصى، قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: أربعون، ثم: حيثُما أدركتْكَ الصلاةُ فصلِّ، والأرض لك مسجد.**" (رواه البخاري: (٣٤٢٥)، ومسلم: (٥٢٠))

ولمّا ارتفع البناء جاء إبراهيم بحجر فقام عليه ليكمل بناءه، وهذا هو مقام إبراهيم اليوم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ (البقرة: ١٢٥) أي: وقلنا للناس اتّخذوا من المقام مصلى (أي صلوا عنده).

وكانا يقولان أثناء بنائهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ (البقرة: ١٢٧ – ١٢٩)

وقد استجاب الله دعاء خليله، فبعث في ولد إسماعيل أكرم رسله محمّد – صلى الله عليه وسلم – على حين فترة من الرسل، داعياً إلى الحنيفيّة السمحة، فعندما سئل النبي صلى الله عليه وسلم: يا نبي الله ما كان أوّل بدء أمرك؟ قال: " **دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى.**"

(رواه أحمد: (١٧١٥٠)، وصحّحه الألباني)

وما أن تمّ البنيان، أمر الله تعالى إبراهيم أن يؤذن في الناس بحِجّ هذا البيت؛ ليشهدوا منافع لهم، قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾

(الحج: ٢٧) أي: ونادِ في الناس داعيًا لهم لحجّ البيت العتيق، يجيبونك ويأتون رجالًا أي مشاة على أقدامهم أو ركبانًا على كل ضامر، وهو الجمل الهزيل الذي قد أتعبه السير، وأنهكه بُعد المسافة، وتأتي هذه الإبل من كل فجّ عميق وهو كل طريق بعيد.

وتأمّل – يا رعاك الله –: الضمير في كلمة (يأتين)، حيث قال القرطبي: " وَرَدَّ الضمير إلى الإبل (يأتين) تكرمة لها لقصدها الحجّ مع أربابها كما قال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ (العاديات: ١) في خيل الجهاد تكرمة لها حين سعت في سبيل الله." (محمّد الصابوني)

ونختم هذه النقطة بهذا التساؤل المشكل: جاء في دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ فهل كان لهما ذنوب فاحتاجا إلى مسألة ربّهما التوبة؟

قال السبت: " قيل: أنه ليس أحدًا من خلق الله إلّا وله من العمل – فيما بينه وبين ربّه – ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة، فجائز أن يكون ما كان من قيلهما ما قالا منذ ذلك، وإنما خصّا به الحال التي كانا عليها من رفع قواعد البيت؛ لأنّ ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما؛ وليجعلا ما فعلا من ذلك سُنّة يقتدى بها بعدهما، وتتّخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصُّل من الذنوب إلى الله."

(خالد السبت: ١٤٢١)

وقال: " وجائزٌ أن يكونا عنيا بقولهما: ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآ﴾ وتب على الظلمة من أولادنا وذريّتنا – الذين أعلمتنا أمرهم – من ظلمهم وشركهم، حتى يُنيبوا إلى طاعتك، فيكون ظاهر الكلام على الدعاء لأنفسهما، والمعنى به ذرّيّتهما، كما يقال: أكرمني فلان في ولدي وأهلي، وبرّني فلان إذا برّ ولده." (خالد السبت: ١٤٢١)

◎ هل بنى آدم أو الملائكة الكعبة قبل إبراهيم؟

هذا السؤال من الأسئلة التي شطحت فيها العقول، حيث ذُكِرَ أن آدم هو الذي تولّى بناء الكعبة، فقد روى ابن جرير بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: " لمّا أهبط الله آدم من الجنّة، قال: إنّي مهبطٌ معك بيتًا يطاف من حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلى عنده، كما يصلى عند عرشي، فلمّا كان زمن الطوفان، رفع، فكانت الأنبياء يحجونه، ولا يعلمون مكانه، حتى بوأه الله إبراهيم – عليه السلام – وأعلمه مكانه، فبناه من خمسة أجبل: من حراء، وثبير، ولبنان، وجبل الطور، وجبل الخمر." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

وهذه الرواية من الإسرائيليّات، قال ابن كثير: " والأشبه – والله أعلم – أن يكون موقوفًا على عبد الله بن عمرو بن العاص، ويكون من الزملتين اللتين أصابهما يوم اليرموك من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث بما فيهما." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

وذكر أنَّ الذي تولّى بناء الكعبة الملائكة، وكلٌّ ما سبق باطل مكذوب.

أمّا الصحيح المتعين: أن إبراهيم وابنه إسماعيل – عليهما السلام – هما اللذان توليا بناء الكعبة، وهذا هو ظاهر القرآن والسنّة الصحيحة.

قال ابن كثير: " ولم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم أن البيت كان مبنيًا قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر، لأنّ مراده: مكان المقدر في علم الله تعالى، المقرّر في قدرته، المعظّم عند الأنبياء موقعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

يبقى إشكال لمّا رواه أبو ذر قال: " قلتُ يا رسولَ الله، أيُّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض أوّلَ؟ **قال: المسجدُ الحرامُ، قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: المسجدُ الأقصى، قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: أربعون، ثم: حيثُما أدركتْكَ الصلاةُ فصلِّ، والأرض لك مسجد.**" (رواه البخاري: (٣٤٢٥)، ومسلم: (٥٢٠))

والإشكال: الحَديث يذكر أن ما بين بناء المسجدين مدّة تقدّر بأربعين عامًا، فكيف يكون إبراهيم وسُليمان – عليهما السلام – هما اللذان بنيا المسجدين وبين هذين النبيّين أكثر من أربعين عامًا؟

وأحسن ما قيل في تحرير هذا الإشكال: آدم – عليه السلام – هو الذي وضع أساس البيتين (المسجد الحرام والأقصى)، وحسب ذلك لا

إشكال أن بين بنائهما مدّة تقدّر بأربعين عامًا، وأمّا كون إبراهيم وسُليمان هما اللذان بنيا المسجدين بالرغم من أن آدم هو واضع أساسهما لا إشكال فيه أيضاً، حيث إن واضع الأساس، لا يسمى صاحب البناء الحقيقي، بينما صاحب البناء الحقيقي هو مَنْ رفعه حتى صار ظاهرًا، وعليه صاحب البناء الحقيقي للكعبة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، بيد أنهما رفعا البناء على الأساس الذي وضعه آدم عليه السلام.

◎ مقام إبراهيم عليه السلام:

هو حَجرٌ أثريٌّ قام عليه إبراهيم – عليه السلام – لمّا ارتفع بناء الكعبة، وهو الحَجر الذي تعرفه الناس اليوم عند الكعبة، ويصلّون خلفه ركعتي الطواف، وهو حجرٌ مربعُ الشكل طوله نصف متر تقريبًا، ولونه بين البياض والسواد والصفرة، ومغطى حاليًا بواجهة رخامية، وفي هذا الحَجر أثر قدمي إبراهيم – عليه السلام – بعدما غاصت فيه قدماه؛ وذلك لأنه حجر ماء، فغاصت فيه قدم إبراهيم، ممّا برزت فيه آثار قدميه، ولكن نتيجة لتمسح الناس طمست ملامح القدم.

قال ابن كثير: " وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب في جاهليّتها، وقد أدرك المسلمون ذلك أيضًا، كما قال أنس: رأيت المقام وفيه أصابعه وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وكان المقام عند الكعبة فأخّره عمر في مكانه المعروف اليوم.

◎ حِجرُ إسماعيل عليه السلام:

حِجرُ إسماعيل أو الحطيم أو الحِجر، هو بناءٌ على شكل نصف دائرة من الجهة الشمالية من الكعبة، وهو في الأصل جزء من الكعبة، حيث إن قريش حينما بنت الكعبة نقصتها النفقة؛ لأنَّها شرطت أن تكون نفقة البناء من المال الحلال، فأخرجوا هذا الجزء من البناء وأحاطوه بسياج حتى يعلم أن هذا الجزء من الكعبة؛ لذا يعد هذا الجزء من الكعبة، ويأخذ أحكامها.

وأصل الحِجر أن إبراهيم حينما بنى الكعبة بمشاركة ابنه إسماعيل جعل بجانب الكعبة من جهة الشمال حِجرًا مدورًا حولها، وبنى عليه عريشًا من أراك لغنم إسماعيل؛ لتؤوي إليه، ولمّا قصرت النفقة بقريش اقتطعوا من جهة الشمال حوالي سبعة أذرع وضموها إلى حِجر إسماعيل.

وبعد أن بُعث الرسول – صلى الله عليه وسلم – رغب في إعادة بنائها على قواعد إبراهيم، بأن يضم إليها ما اقتطعته قريش منها وجعلته في الحِجر، لكنه لم يفعل ذلك؛ لأنّ الناس كانوا حَديثي عهد بالجاهليّة.

ولمّا احترقت الكعبة في زمن إمارة عبد الله بن الزبير لمكة، هدمها وأعد بناءها على الصورة التي كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يرغب ببنائها عليها، فأدخل فيها ما أُقتطع للحِجر.

وعندما قُتل عبد الله بن الزبير عام (٧٣ هـ)، كتب الحجاج بن يوسف الثقفي لعبد الملك بن مروان يعلمه بما فعل ابن الزبير في بناء الكعبة، فكتب إليه عبد الملك أن يعيد الحِجر كما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فنقض الحجاج الكعبة وبناها عل سابق عهدها.

وفي عهد الدولة العباسيّة أراد الخليفة المهدي أن يبني الكعبة على ما بناها ابن الزبير، فاستشار الإمام مالك بن أنس فيها عن ذلك، فقال مالك: إني أكره أن يتّخذها الخلفاء لُعبة، هذا يرى رأي ابن الزبير، وهذا يرى رأي عبد الملك بن مروان، وهذا يرى رأيًا آخر.

وللحِجر فضل عظيم، والصلاة فيه مستحبّة؛ لأنه من البيت.

◎ ذكر إبراهيم في الكتب المقدسة:

قال هراس: " اتّفقت الأديانُ الثلاثة الكبرى: اليهوديّة والنصرانيّة والإسلام على تقديس إبراهيم – عليه السلام – واحترامه، والتباهي بالانتساب إليه، بل وصل الحدُّ إلى ادّعاء كل من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم، حتى فضح القرآن جهلهم بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ

تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (آل عمران: ٦٥ – ٦٨)" (محمّد هراس)

وقال: " وقد جاء ذكره – عليه السلام – في الكتب المقدّسة الثلاثة: التوراة، والإنجيل، والقرآن. وكلها تشير إلى مكانته العالية في الدين، وتفضي عليه ما هو أهل له من المديح والثناء." (محمّد هراس)

وهاكم ذلك الغيض من فيض ذكره الحسن في الكتب السماويّة الثلاث:

ما جاء في التوراة:

قال هراس: " فقد جاء ذكره في سفر التكوين في الإصحاح الثاني عشر:

إنَّ الربَّ قال لإبراهيم: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أربيك فأجعلك أمّة عظيمة، وأباركك وأعظم اسمك

وتكون بركة، وأبارك من يباركك، ومن يلعنك ألعنه، وفيه تتبارك جميع قبائل الأرض، فذهب إبراهيم كما قال له الربُّ وذهب معه لوط."

(محمّد هراس)

ما جاء في الإنجيل:

قال هراس: " وفي المصادر المسيحية ذُكر – وإن كان على ندرة – ففي الإصحاح الثامن من إنجيل متّى، يقول المسيح عليه السلام: الحقّ أقول لكم لم أجد في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا، وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السموات، وأمّا بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية." (محمّد هراس)

وأمّا القرآن الكريم فقد أفاض الحَديث عنه ببالغ التكريم، وعظيم الثناء، وفريد الذكر والامتنان:

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

(البقرة: ١٢٤)

فلمّا وفّى إبراهيم ما أمره به ربُّه من التكاليف الشرعيّة العظيمة من أوامر ونواه، حيث قام بهن خير قيام، جعله تعالى للناس إماماً يقتدون

به، ويأتمون بهديه، وسأل إبراهيم الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه، وباقية في نسبه، وخالدة في عقبه، فأجابه تعالى إلى ما سأل ورام، وسُلّمت إليه الإمامة بزمام، وأُسْتُثني من نيلها الظالمون، واختصَّ بها من ذرّيّته العلماء العاملون.(١)

وقد قال تعالى عن إبراهيم أيضًا: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَاهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ (البقرة : ١٣٠ – ١٣٢)

فقد أَكّدَ الله تعالى على أنه لا يترك دين إبراهيم الحقّ وملّته الغراء إلّا من استخفَّ نفسه وظلمها، فأي دين هو أصوب من دين الذي اصطفاه

---

(١) **ما المقصود بالكلمات التي أُختبر بها إبراهيم عليه السلام؟!** قال الصابوني: " واختلف المفسرون في الكلمات التي أُختبر بها إبراهيم عليه السلام، وأصحّ الأقوال ما روي عن ابن عباس أنه قال: الكلمات التي أُبتلي بهن إبراهيم فأتمهن: فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجّة النمرود في الله، وصبره على قذفهم إياه في النار ليحرقوه، والهجرة من وطنه حين أمر بالخروج عنهم، وما أُبتلي به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه." (محمّد الصابوني)

الله بالرسالة والإمامة، وجعله من المصطفين المقربين، ويمدح الله تعالى خليله بأنه لما طلب من إبراهيم الاستسلام لأمره سرعان ما استجاب إبراهيم لذلك، ولم يستجب لها وحسب بل جعلها وصيته للأبناء والأحفاد.

وقال تعالى عنه أيضاً: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ١٢٥﴾ (النساء : ١٢٥)

فقد رغّب الله تعالى في اتّباع صراط إبراهيم عليه السلام؛ لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم، وقد قام بجميع ما أمره به ربّه من تكاليف عظيمة وأوامر كبيرة، فاستحق بذلك مدح الله له ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ (النجم: ٣٧)؛ ولهذا اتّخذه الله خليلاً، والخلّة هي غاية المحبّة.

إلى غيرها من المواضع والتي تصل إلى خمسة وثلاثين موضعاً، منها خمسة عشر موضعاً في سورة البقرة وحدها.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (الصافات : ١٠٩) أي: تحية لإبراهيم خليل الرحمن، وأبي الأنبياء، وأحد أولى العزم من الرسل، ومن الخمسة الذين تدور عليهم الشفاعة يوم الدين!

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (الصافات : ١٠٩) تحية لثاني الأنبياء شرفاً بعد محمّد صلى الله عليه وسلم!

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ (الصافات : ١٠٩) تحية لأوّل من يُكسى يوم القيامة!

فعن ابن عباس أنه قال: قام فينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خطيبًا بموعظة فقال: " **يا أيُّها الناسُ إنّكم تحشرونَ إلى الله تعالى حُفاةً عُراةً غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ (الأنبياء : ١٠٤) ألا وإنَّ أوّلَ الخلائقِ يُكْسى يومَ القيامةِ إبراهيمُ عليه السلامُ.**"

(رواه البخاري: (٤٧٤٠)، ومسلم: (٢٨٦٠))

قال مصطفى الخن: " سيدنا إبراهيم – عليه السلام – من أولي العزم من الرسل، وهذه مزية لسيدنا إبراهيم – عليه السلام – لا تقتضي الأفضليّة؛ لأنه – صلى الله عليه وسلم – خاتم النبيّين وإمام المرسلين، وخير الخلق أجمعين، أو أنه أوّل من يُكسى بعد سيدنا محمّد صلى الله عليه وسلم." (مصطفى الخن وآخرون: ١٩٩٢)

o o o o

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من قصّة إبراهيم وابنيه: إسماعيل وإسحاق - عليهم السلام -

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾

(يوسف: ١١١)

الفوائد المستفادة من قصّة إبراهيم وابنيه: إسماعيل وإسحاق – عليهم السلام –

تمهيد:

قصّة إبراهيم وابنيه الكريمين كغيرها – من قصص الأنبياء والمرسلين – ليست للتسلية أو السمر وإنما لأخذ العبر والعظات، وللاقتداء بهؤلاء الأطهار الأتقياء الأنقياء، والسير على دربهم، فاطلاعنا على سيرهم، وما تحملوه من أذى في سبيل الله تقوية لعزائمنا، وتصحيح لهممنا، وتسلية لنا عما يصيبنا من اللأواء..

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ ﴾

(يوسف: ١١١)

الفوائد المستفادة من قصّة إبراهيم وابنيه: إسماعيل وإسحاق – عليهم السلام –:

١. أهمية دعوة إبراهيم عليه السلام:

قال هراس: " لم تكن أهمية الدور الذي قام به إبراهيم – عليه السلام – في الدعوة إلى التوحيد قاصرة على ما بذله في حياته من جهد استحق به الخُلّة للرحمن، وتبوّأ به منصب الإمامة في الدين، بل إن أهمية دوره

لتظهر أكثر وأكثر في امتداد دعوته في الأجيال من بعده، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الزخرف: ٢٦ – ٢٨)

وكقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (العنكبوت : ٢٧)

فجميع الأنبياء بعد إبراهيم – عليه السلام – كلهم من ذرّيّته، ولهذا لقب بأبي الأنبياء." (محمّد هراس)

٢. كِذْبات إبراهيم الثلاث:

نُسِبَ لإبراهيم – عليه السلام – ثلاث كذبات، اثنتان منهن في ذات الله، وهما: قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ (الصافات: ٨٩)، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ (الأنبياء: ٦٣)، وواحدة في شأن سارة، عندما سئل عنها، فقال: " **أختي**".

فهل كذب إبراهيم؟

الحقُّ إبراهيم – عليه السلام – لم يكذب، وإنما هذه الأقوال من معاريض الكلام، والتي قال عنها صلى الله عليه وسلم: " **إنَّ في المعاريضِ لَمَنْدوحةً عَنِ الكذبِ.**" (رواه البخاري في الأدب المفرد: ٨٥٧)

وقد خرّج العلماء أقوال إبراهيم السابقة تخريجًا بديعًا يحفظ لإبراهيم – عليه السلام – فضله ومكانته.

فقوله الأوّل: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾:

قال ابن قتيبة: " فقول إبراهيم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي سأسقم؟ لأنّ كل من كُتِبَ عليه الموت لا بدَّ أن يسقم، فأوهمهم إبراهيم بمعاريض الكلام أنه سقيمٌ عليلٌ، ولم يكن عليلًا سقيمًا، ولا كاذبًا." (ابن قتيبة: ٢٠٠٢)

وقيل: أي مريض القلب من عبادتكم للأصنام.

أمّا قوله الثاني: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾:

قال ابن قتيبة: " وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أراد: بل فعله الكبير، إن كانوا ينطقون، فاسألوهم، فجعل النطق شرطاً للفعل، أي إن كانوا ينطقون فقد فعله، وهو لا يعقل ولا ينطق." (ابن قتيبة: ٢٠٠٢)

وقال الأنصاري: " قاله استهزاء وتهكمًا بمن سفهوه، وإلّا ففاعله هو نفسه." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

وقال أيضًا: " إنه لمّا كان الحامل له على الفعل تعظيمهم للأصنام، وكان كبيرهم أبعث له على الفعل، لمزيد تعظيمهم له، أسند الفعل إليه؛ لأنه السبب فيه." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

وذُكر: أن إبراهيم توقف عند قوله ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ﴾، ثم استأنف فقال: ﴿كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾، فكأنه قال: بل فعله، وكبيرهم هذا.

وأخيرًا قوله الثالث: قوله عن سارة (أختي):

قال ابن قتيبة: " وقوله عن سارة " **أختي** " فبنوا آدم يرجعون إلى أبوين، فهم إخوة، ولأنّ المؤمنين إخوة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)" (ابن قتيبة: ٢٠٠٢)

أمّا ما رُوِيَ عن الرسول صلى الله عليه وسلم: **"والله ما كَذَبَ إلّا وهو يماحِلُ بها عن الإسلام."** (رواه ابن الأثير الجزري) أي يدافع ويجادل، وقد سماها الرسول – صلى الله عليه وسلم – كذبات؛ لأنَّها شابهت الكذب وضارعته.

قال ابن قتيبة: " لذلك قال بعض السلف لابنه: يا بني لا تكذبن، ولا تشبهن بالكذب، فنهاه عن المعاريض؛ لئلا يجري على اعتيادها، فيتجاوزها إلى الكذب، وأحبّ أن يكون حاجزاً من الحلال بينه وبين الحرام." (ابن قتيبة: ٢٠٠٢)

بقي إطلاق إبراهيم على هذه الأقوال كذبات، في حَديث الشفاعة الطويل، والذي فيه: " **فيَأتونَهُ، فيقولُ: لَسْتُ هُناكُمْ** (أي: لست أهلًا لذلك، وهو كناية عن التواضع)"

(رواه البخاري: (٧٤٤٠)، ومسلم: (١٩٣))

فإنما كان ذلك من باب شدّة الخشية لله، فعدَّ الخليل – عليه السلام – أقواله السابقة كذبات، رغم أنها من المعاريض، نظراً لعظمت مكانته عند الله، فمثله لا يصحُّ أن يقع منه ذلك، فسماها كذبات، وكما يقال: " حسنات الأبرار سيئات المقربين."[١]

٣. هل المعاريض من الحيل التي نهى عنها الإسلام؟

المعاريض: هي تكلمُ الإنسان بكلام إن صرح به كان كذبًا، فيعارضه بكلام آخر يوافق ذلك الكلام في اللفظ، ويخالفه في المعنى، فيتوهم السامع أنه أراد ذلك.

قال ابن القيم: " فالمعرض إنما يقصد باللفظ ما جعل اللفظ دالًّا عليه ومُثبتاً له في الجملة، فهو لم يخرج بتعريضه عن حدود الكلام، فإن

---

(١) " فلو تبرع بعض الأبرار مثلًا بنصف ماله، كان منه حسنًا جميلًا، ولكن لو قام النبي بهذا التبرع لعدّ منه تقصيرًا في مقام النبوة، وكان مأخذًا يعاتب عليه لعظم مكانته في التبرع والجهاد." (محمود الشريف)

الكلام فيه الحقيقة والمجاز، والعامّ والخاصّ، والمطلق والمقيد، والمفرد والمشترك، والمتباين والمترادف." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

ومن أمثلة المعاريض:

ما قاله النخعيُّ: إذا بلغ الرجل عنك شيء قلته، فقل: الله يعلم ما قلتُ من ذلك من شيء، فيتوهم السامع النفي، ومقصودك الله يعلم الذي قلته.

ونحو: أن يقول شخص: فلان يثني عليك، وهو يقصد بذلك أنه يثني على جنسك من المسلمين، فإن كل إنسان يثني على المسلمين من غير تخصيص.

قال ابن القيم: " وتختلف دلالته تارة بحسب اللفظ المفرد، وتارة بحسب التأليف، وقد يكون التعريض بالقول والفعل معاً، كما قال سُليمان عليه السلام: " **ائتوني بالسكينِ أشقّهُ بينكما**."

(رواه البخاري: (٦٧٦٩)، ومسلم: (١٧٢٠))

وقد يكون بإظهار الصمم وإنه لا يسمع، وبإظهار النوم، وإظهار الشبع، وإظهار الغنى، بحيث يحسبه الجاهل غنيًّا.

وكما يقع الإجمال في الأقوال، فكذلك يقع في الأفعال، كما أعطى النبي – صلى الله عليه وسلم – عمر حلة من الحرير، فلمّا لبسها أنكر عليه، **وقال: لم أُعْطِكها لِتلبسها**[1]، فكساها أخاً له مشركاً بمكة.

---

(١) الحَديث: رواه البخاري: (٥٩٨١)

فكل من الإجمال والاشتراك والاشتباه يقع في الألفاظ تارة، وفي الأفعال تارة، وفيهما معاً تارة.

ومن أنواع المعاريض: أن يتكلم المتكلم بكلام حقّ يقصد به حقيقته، وظاهره يوهم السامع نسبته إلى غير قائله؛ ليقبله ولا يرده عليه، أو ليتخلص به من شرّه وظلمه." (ابن القيم بتصرف: ٢٠٠٢)

ونعود إلى السؤال الذي طرحناه آنفًا: هل المعاريض من الحيل التي نهى عنها الإسلام؟

قال ابن القيم:

" والمعاريض ليست من الحيل التي نهى عنها الإسلام، فأين المعاريض التي يتخلص بها الإنسان من الظلم والكذب، إلى الحيل التي يسقط بها ما فرض الله تعالى، ويُستحلّ بها ما حرّم الله؟!

فالمُعّرض تكلم بحقّ، ونطق بصدق فيما بينه وبين الله تعالى، لا سيما إذا لم ينو باللفظ خلاف ظاهره في نفسه، وإنما كان الظهور من ضعف فهم السامع وقصوره في معرفة دلالة اللفظ.

ومعاريض النبي – صلى الله عليه وسلم – ومزاحه عامّته كان من هذا الباب، كقوله صلى الله عليه وسلم: " **نحنُ من ماءٍ.**"، وأكثر معاريض السلف كانت من هذا." (ابن القيم بتصرف: ٢٠٠٢)

٤. هل يجوز الكذب في بعض الحالات؟

الكذبُ محرمٌ تحريماً قطعيًّا، ولم يبحه العلماء إلّا بشروط محددة اختصرها النووي بقوله: الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، وإن لم يمكن تحصيله إلّا بالكذب لا يمنع الكذب فيه.

بمعنى:

- الإصلاح بين الناس أمر محمود، فإن أصلحتَ بين متخاصمين بغير كذب فنعمت، وإن لم تستطع إلّا بالكذب جاز لك الكذب.
- إنسان مظلوم اختبأ عندك، وجاء ظالمه يسأل عنه، إذا استطعت ردّه بغير كذب فحسن، وإن لم تقدر إلّا بالكذب جاز لك ذلك.
- حَديث الرجل لزَوْجه بما يسرّها، وحَديثها لزَوْجها بما يسرّه أمر محمود، وإن تحقّق ذلك بغير كذب فجميل، وإن احتاجا للكذب لا يمتنع. وهكذا.

ويقال: الأحوط يوري في ذلك، ولكن إن لم يورِ لا جناح عليه، والله أعلم.

٥. لِمَ لَمْ يُنْزِل الله مطراً أو يُرْسِل رياحاً – مثلًا – لإطفاء النار؟

لم يُنزِل الله مطراً أو يُرسل رياحاً ونحو ذلك لإطفاء النار، حتى لا يَنْسب قوم إبراهيم نجاته منها إلى أسباب عارضة، نحو: نزول المطر أو هبوب الرياح، فيجحدون السبب الحقيقي وهو قدرة الله، وكذلك لتظهر كرامة الله لإبراهيم جلية أمام أعدائه؛ ولتبقى ثناءً حسناً بعد موته.

٦. حكم قَتْل الوزغ:

في قصّة إبراهيم – عليه السلام – ظهر حيوان صغير وهو الوزغ (أي: البرص أو البريصة) هذا الحيوان برغم صغره قام بعمل عجيب!!

حيث أخذ ينفخ النار على إبراهيم حتى تزداد اشتعالاً، ففي حَديث أم شريك – رضي الله عنها – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " **وكان ينفخُ على إبراهيمَ عليه السلامُ.**" (رواه البخاري: ٣٣٥٩)

فيا له من عمل عجيب!!

والمشهور بين الناس أنَّ حثَّ النبي – صلى الله عليه وسلم – لقتل الوزغ (البرص) حينما قال صلى لله عليه وسلم: " **من قَتَلَ وزغًا في أوّلِ ضربة كُتِبَ له مئة حسنة، وفي الثانية دون ذلك، وفي الثالثة دون ذلك.**" (رواه مسلم: ٢٢٤٠) كان بسبب نفخه النار على إبراهيم!

وهذا ليس بصحيح حيث إن الوزغ الموجود اليوم ليس هو الوزغ الذي كان ينفخ النار على إبراهيم عليه السلام، فكيف يحاسب على ذنب جدّه؛

لذا العلة الصحيحة لقتله: الوزغ لا يقتل بذنب جدّه، وإنما يقتل لكونه ضارًّا مؤذياً، ولا فرق بين الموجود في البيوت والأرض الفضاء.

٧. البشارة بإسحاق:

وقعت البشارة بإسحاق مرّتين: مرّة بُشِّرَ بها إبراهيم، حيث قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الصافات: ١١٢)، وأخرى بُشِّرَتْ زَوْجه سارة بها، حيث قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ (هود: ٧١)

والسؤال: ألا كان تكفي بشارة واحدة لكليهما؟!

يقول دكتور محمّد خلف الله:

" لا يدلُّ ذلك (التكرار) على أن القرآن في قَصصه يلجأ إلى نوع من الحريّة الفنيّة في تناوله مسائل التاريخ إذ لا يتقيد بالحقيقة التاريخيّة، وإنما يستبيح لنفسه ما يستبيحه أي فنان في صوغ قصّة تاريخيّة، بل إن هذا التكرار يدلّ على نظرة القرآن إلى المرأة وزَوْجها، وعلى أنهما شيء واحد، فإسحاق ابنهما، فلتسند البشارة مرّة إلى الأب، ومرّة إلى الأمّ لا فرق في ذلك، ولا اختلاف في الحقيقة بين الروايتين وهما سواء في هذا الموضوع." (عبد الحميد إبراهيم: ١٩٨٨)

٨. " حسبي الله ونعم الوكيل " ملجأ كل مظلوم:

قال ابن عباس: " **حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ قالها إبراهيمُ – عليه السلامُ – حين أُلقِيَ في النار، وقالها محمّدٌ – صلى الله عليه وسلم – حين قالوا: إنَّ الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ.**" (رواه البخاري: ٤٥٦٣)

فقول: (**حسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ**) الحصن الحصين، والملجأ المنيع لكل مظلوم ومقهور في أي زمان ومكان، من قالها بصدق وإخلاص كانت النتيجة: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ (آل عمران: ١٧٤)

٩. إذا أتتك الهموم كالجبال، تذكر أرحنا بها يا بلال:

تعرض إبراهيم إلى مواقف عصيبة، منها ذهاب زَوْجه سارة – رضي الله عنها – لمقابلة ملك مصر الكافر الجبّار العنيد، فما كان من إبراهيم إلّا أن قام مُصلّياً لله عزّ وجلّ، وأخذ يسأل ربَّه أن يدفع الشرَّ عن أهله، وأن يردّ شرّ الملك الجبّار إلى نحره، فعصمها الله من كيد الملك الجبّار العنيد وصانها، وأخدمها هاجر؛ وبذلك يتبيّن عظم الصلاة في دفع المصائب؛ ولهذا أمرنا تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ (البقرة : ٤٥)، وها هو الرسول – صلى الله عليه

وسلم – إذا أهمّه شيء فزع إلى الصلاة، وكان كثيراً ما يقول: " **يا بلالُ، أقمِ الصلاةَ أرِحْنا بها.**" (رواه ابو داود: ٤٩٨٥)

فإذا أتتك الهموم كالجبال، تذكر أرحنا بها يا بلال!!

١٠. حقيقة غيرة سارة من هاجر:

ذكر المفسرون: أن سارة قد غارت من هاجر غيرة شديدة بعدما أنجبت الأخيرة إسماعيل، دفعتها إلى الطلب من زَوْجها إبراهيم ألّا يساكنها معها في مكان واحد، **فكيف شعرت امرأة رفيعة المنزلة مثل سارة بالغيرة؟ وهل شعورها بالغيرة هو السبب الذي من أجله أُمر إبراهيم – عليه السلام – بإرسال هاجر وإسماعيل إلى الصحراء؟**

بداية: غيرة المرأة من ضرائرها أمر جبلت عليه بنات آدم؛ لذا لا تؤاخذ عليه ما لم تتعدّ، فإن تعدّت وظلمت أختها(ضرّتها)، نحو: الوقوع في غيبة أو نميمة تؤذي بها ضرّتها فقد ظلمت وتعدّت، وبذلك تأثم.

وما حصل من غيرة سارة تجاه هاجر هو من باب الغيرة الفطريّة غير الآثمة، فطلبت من زَوْجها ألّا ترى ضرّتها أو تجاورها وهذا أمر غير مستنكر، مع أن الذي ذكره أهل العلم أن إبراهيم – عليه السلام – هو الذي خرج بهاجر وإسماعيل، وليس سارة هي التي طلبت منه ذلك.

ويدلّ على ذلك قول هاجر: " **يا إبراهيمُ أين تذهبُ وتترُكْنا بهذا الوادي الذي ليسَ فيه أنيسٌ ولا شيءٌ؟! فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا**

يلتفتُ إليها، فقالت له: آلله الذي أمَرَكَ بهذا؟ قال: نعم، فقالت: إذنْ لا يُضيُعنا." (رواه البخاري: ٣٣٦٤)

١١. هاجر الزوجة الصالحة:

هجرةِ إبراهيم بزَوْجه هاجر ورضيعه إلى أرض الحجاز حيث المكان الموحش القفر في ذلك الوقت، وتركهما بمفردهما وحيدين لأمر عجيب.

ولكن الأعجب منه هو موافقة هاجر على ذلك، خاصّة إنْ علمنا أنّ هاجر كانت قادمة من الشام حيث البيت العامر، وقبل الشام كانت مقيمة في قرى مصر المتمدنة، فما هذه المعيشة الجديدة التي بلا رفاهيّة ولا مدنيّة، وكان الهلاك يحوم وينتظر؟!

وهل يمكن أن يُرضي النفس البشريّة هذا التغيير؟! بالطبع، لا!

فَلِمَ وافقت هاجر على الهجرة إلى هذا المكان فضلًا عن البقاء فيه؟!

إنه اليقين بالله الذي تعلمته في بيت النبوّة، والذي عبرت عنه بكلمات موجزة " **فإذن لا يضيعنا** "، وكما فهمت اليقين بالله، فهمت كيف تكون زوجة معينة لزَوْجها على طاعة ربّه، وألّا تكون حجرة عثرة في طريق تنفيذ زَوْجها أوامر الله تعالى.

وأخيرًا قال ابن عباس: " أوّل من اتّخذ المِنْطق من قبلُ أمّ إسماعيل اتّخذت مِنطقًا؛ لتعفي أثرها على سارة." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

قال الكحلوت: " المِنْطق: من النطاق، وجمعه مناطق، وهو تلبس المرأة ثوبها، ثم تشدّ وسطها بشيء، وترفع وسط ثوبها، وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال؛ لئلا تعثر في ذيلها."

(عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

هذه أمّنا هاجر يا بني ماء السماء!! قال أبو هريرة عن هاجر رضي الله عنها: " فتلك أمّكم يا بني ماء السماء."[١]

١٢. الصلاح من الله، والأدب من الآباء:

عاشت هاجر وطفلها إسماعيل – عليهما السلام – في أرض الحجاز بمفردهما، بدون وجود الزوج إبراهيم – عليه السلام – إذا ما استثنينا الفترات التي كان يطالع فيها أسرته، ومن المؤكد أن مواقف صعبة قد مرّت على هاجر وإسماعيل – عليهما السلام – وهما في أرض الحجاز، والذي يظهر أن الله قد حفظهما من كل سوء، وأجرى عليهما النعم تترى.

---

(١) قال ابن حجر: " أراد بماء السماء زمزم؛ لأنّ الله أنبعها لهاجر، فعاش ولدها بها، فصاروا كأنهم أولادها، قال ابن حبان في صحيحه: كل من كان من ولد إسماعيل، يقال له ماء السماء؛ لأنّ إسماعيل ولد هاجر، وقد ربّي بماء زمزم، وهي من ماء السماء." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

والسؤال المهم: ما سبب حفظ الله تعالى لهما؟!

السبب الرئيسي هو صلاح الزوج إبراهيم عليه السلام، وقد صحّ عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " **الصلاحُ من اللهِ، والأدبُ من الآباءِ.**" (رواه البخاري في الأدب المفرد: ٩٢)

وروي عن بعض السلف قوله لابنه: لأزيدن من صلاتي لأجلك.

وصدق محمود الوراق:

رَأَيتُ صَلاحَ المَرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ *** وَيُعديهِمُ داءُ الفَسادِ إذا فَسَد

يُعَظَّمُ في الدُّنيا بِفَضْلِ صَلاحِهِ *** وَيُحْفَظُ بَعدَ المَوتِ في الأهلِ والوَلَد

فأسرتك هي ظلُّكَ إن استقمت استقاموا.

١٣. آداب الدعاء:

عندما ترك إبراهيم زَوْجه ورضيعه في صحراء مكة الموحشة آنذاك، رفع أيدي الضراعة مُبتهلًا إلى ربّه قائلًا: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (إبراهيم: ٣٧)

ومن دعاء إبراهيم السابق نستخلص أهمّ آداب الدعاء، **والتي منها:**

- إظهار الضراعة والذلّة أمام الله تعالي.

- رفع اليدين لتأكيد الضراعة.
- اشتمال الدعاء على اسم من أسماء الله تعالى.
- التوجه نحو البيت (القبلة).
- الدعاء بالخير.
- ألّا يستكثر شيئًا في الدعاء، وإنما يطلب ويطلب فخزائن الله ملآى وفضله كثير.
- عدم استبطأ الإجابة.
- إطابة المطعم والمشرب.

واعلم - يا رعاك الله - أن دعاء المسلم لا يضيع، إمّا أن يُستجاب له ويتحقق المطلوب عاجلاً، وإمّا أن يُدْفَعَ عنه سوءٌ مثله، وإمّا أن يدخر له في الآخرة.

وبذلك نفهم قول عمر رضي الله عنه: " إني لا أحمل همَّ الإجابة، وإنما أحمل همَّ الدعاء"، وقول زياد بن أبي زياد: " أنا من أن أمنع الدعاء، أخوف من أن أمنع الإجابة."

١٤. أيما أسبق التزكية أم التعليم؟

بداية ما المقصود بالتزكية؟

التزكية هي: مخالفة أهواء النفس، والبعد عن المعاصي والذنوب.

وقد قدمت آيات القرآن الكريم التزكية على التعليم في كل المواضع، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، ما عدا آية واحدة قُدم التعليم على التزكية، وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة : ١٢٩)

فما السرُّ في ذلك؟

أوّلاً: تقديم آيات القرآن التزكية على التعليم في كل المواضع ما عدا موضعًا واحدًا لدليلٌ على أهمية التزكية.

ثانياً: إنّ الآية التي قُدِمَ فيها التعليم على التزكية هي من قول إبراهيم عليه السلام؛ وذلك لمّا كانت وظيفة الأنبياء والمرسلين هي التعليم في المقام الأوّل، قدّمها إبراهيم على التزكية التي تعدُّ تابعة لاحقة للتعليم في حقّ الأنبياء.

ومن هذا يُفهم أنه يجب على الداعي أن ينصب اهتمامه أوّلاً على التعليم، وإبراز الحقّ للعامّة، ولا يشغله حصول التزكية من عدمه، حيث إن التزكية ليست بمقدور الداعي، ولا باستطاعته استجلابها، فهي مِلكٌ لله

وحده يهبها من يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ (النور: ٢١)

١٥. حقيقة الأحلام:

إن الروح عند النوم تذهب إلى حيث يشاء الله تعالى لها أن تذهب، ثم إنها في هذه الحال ترى منامات وأحلام تنقسم إلى أقسام ثلاثة:

أ – **رؤيا صالحة:**

وهي ما يحبُّه الإنسان ويتمنّاه، وهذه من الله تعالى، وهي من نعم الله تعالى على الإنسان؛ لأنه إذا رأى ما يحبُّ فرح ونشط، وصارت رؤياه بشرى، فالرؤيا الصالحة يراها الإنسان – أو تُرى له – وهي عاجل بشرى المؤمن، ومن رأى رؤيا حسنة، فليحدث بها من يحبّ من الناس.

ب – **رؤيا مكروهة:**

وهي ما يكره الإنسان ولا يتمنّاه، وهي من الشيطان؛ ليحزنه ويزعجه ويقلقه، ولن تضرّه – إن شاء الله – إذا استعاذ بالله تعالى من شرّ ما رأى ومن شرّ الشيطان، ولا يحدث بها أحداً، ولا يحرص على تفسيرها.

ج – **رؤيا لا صالحة ولا مكروهة:**

وهي حَديث النفس، فعندما ينشغل الإنسان بشيء ما ويفكر فيه يراه في منامه.

هل للأحلام أحكام شرعيّة في الدنيا؟

ليس للأحلام أحكامًا شرعيّة في الدنيا، وقد يقول بعض الناس: رأيتُ النبي – صلى الله عليه وسلم – في النوم، فقال لي كذا وأمرني بكذا، فهل أعمل بها وأترك الحدود الموضوعة في الشريعة؟

قال الشاطبي: " لا؛ لأنّ الرؤيا من غير الأنبياء لا يحكم بها شرعاً على حال إلّا أن تعرض على ما في أيدينا من الأحكام الشرعيّة، فإن سوغتها عمل بمقتضاها، وإلّا وجب تركها والإعراض عنها، وإنما فائدتها البشارة أو النذارة خاصّة، وأمّا استفادة الأحكام فلا." (الشاطبي: ١٩٩١)

بقي إشكالان:

الإشكال الأوّل: ورد أن الرؤيا جزء من أجزاء النبوّة، وإذا كانت كذلك فلا ينبغي أن تهمل.

وقد أجاب الشاطبي عن هذا الإشكال: " إن كانت الرؤيا من أجزاء النبوّة فليست لدينا من كمال الوحي، بل جزء من أجزائه، والجزء لا يقوم مقام الكل في جميع الوجوه، بل إنما يقوم مقامه في بعض الوجوه، وقد صرفت إلى جهة البشارة والنذارة، وفيها كاف." (الشاطبي: ١٩٩١)

وقال: " وأيضاً فإن الرؤيا التي هي جزء من أجزاء النبوّة من شرطها أن تكون صالحة من الرجل الصالح، وحصول الشروط ممّا ينظر فيه، فقد تتوفر، وقد لا تتوفر." (الشاطبي: ١٩٩١)

الإشكال الثاني: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: " **مَنْ رآني في المنامِ فقد رآني، فإنَّ الشيطانَ لا يَتَمثَّلُ في صورتي.**" (رواه البخاري: (٦٩٩٣- ٦١٩٧)، ومسلم: (٢٢٦٦))، وإذا كان ذلك فإخباره في النوم كإخباره في اليقظة.

قال الشاطبي: " ليس معنى قوله " **من رآني في المنام فقد رآني.**" أن كل من رأى في منامه أنه رآه حقيقة ....، بدليل أن الرائي قد يراه مرّات على صور مختلفة، يراه الرائي هذا على صفة، وغيره على صفة أخرى، ولا يجوز أن تختلف صور النبي – صلى الله عليه وسلم – ولا صفاته، وإنما معنى الحَديث: من رآني على صورتي التي خلقت عليها، فقد رآني، إذ لا يتمثل الشيطان بي، وأنى لهذا الرائي الذي رأى أنه رآه على صورته؟ وإن ظنّ أنه رآه، ما لم يعلم أن تلك الصورة صورته بعينها، وهذا ما لا طريق لأحد إلى معرفته." (الشاطبي: ١٩٩١)

١٦. الأبناء قرة عين الإنسان:

الأبناء قرة عين الإنسان في حياته، وبهجته في عمره، وأنسه في عيشه، بهم تحلو الحياة، وعليهم بعد الله تعلق الآمال، لا سيما الصالحين منهم.

ومن وُهِبَ هذه النعمة الكبرى، والمنة العظمى، فليحمد ربه عليها، كما قال إبراهيم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ (إبراهيم: ٣٩)

ومن شُكْر نعمة الأولاد، القيام بحقّهم من حسن تربية، وإكمال عقيدة، وإتمام خلق، وإقامة عبادات.

فالأب المسلم الحق يدرك حجم مسؤوليته العظمى في هذه الحياة، " **كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته.**" (رواه البخاري:(٢٥٥٤)، ومسلم: (١٨٢٩))

١٧. الخُلّة أعلى درجات المحبّة:

بداية: الخلّة هي محبّة تخللت روح المحبّ وقلبه حتى ملأته.

قال بشار بن برد:

وقَدْ تَخَلّلتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنّي * * * وَلِذا سُمّيَ الخَليلُ خَليلا

فإذا ما نَطَقْتُ كُنْتَ حَديثي * * * وإذا ما سَكَتُّ كُنْتَ الغَليلا

واختلف العلماء أيما أرفع الخُلّة أم المحبّة؟

فذكر بعض العلماء: أنهما سواء، فلا يكون الحبيب إلّا خليلًا، ولا يكون الخليل إلّا حبيبًا.

وذُكر: أن المحبّة أرفع من الخلّة.

وذُكر: أن درجة الخلّة أرفع من درجة المحبّة، **وهذا هو الصواب، لما يأتي:**

قال صلى الله عليه وسلم: " **لو كنتُ مُتَّخِذًا خليلًا لاتّخذتُ أبا بكرٍ خليلًا، ولكنَّه أخي وصاحبي، وقد اتَّخَذَ اللهُ – عزّ وجلّ – صاحبَكُم خليلًا.**" (رواه مسلم: ٢٣٨٣).

فالرسول لم يتّخذ أبا بكر خليلًا، بينما أطلق المحبّة لفاطمة وابنيها وغيرهم، ممّا يدلّ ذلك على أن الخلّة أرفع من المحبّة.

وقد ثبتت الخلّة من الله تعالى لاثنين من البشر فقط، هما: إبراهيم ومحمّد عليهما الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ (النساء: ١٢٥)

وثبت عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " **إنَّ اللهَ اتّخذني خليلًا كما اتّخذ إبراهيمَ خليلًا.**" (رواه ابن حبان: (٦٤٢٥))، وهو حَديثٌ صحيحٌ.

أخيرًا ما يشتهر بين الناس: أنَّ إبراهيم خليل الله، وأنَّ محمّد حبيب الله، هو قولٌ غيرُ صحيح.

قال الطحاوي: " المحبّة قد تثبت لمحمّد ولغيره، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ (آل عمران: ١٣٤)، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦﴾ (آل عمران: ٧٦) ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ (التوبة: ١٠٨)

فبطل قول من خصَّ الخلّة بإبراهيم، والمحبّة بمحمّد، بل الخلّة خاصّة بهما، والمحبّة عامّة." (الطحاوي: ٢٠٠٠)

فالصواب: محمّد خليل الله، صلى الله عليه وسلم.

قال ابن أبي العز: " واعلم أن وصف الله تعالى بالمحبّة والخلّة هو كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته، كسائر صفاته تعالى."

(ابن أبي العز: ٢٠٠٠)

١٨. آداب الضيافة:

الضيافة خلق فاضل قديم منذ عهد إبراهيم عليه السلام، فإبراهيم هو أوّل من أضاف على هذا الوجه الحسن للضيافة؛ لذا يقال: إبراهيم أبو الضيفان، قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ

بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧﴾ (الذاريات: ٢٤ – ٢٧)

وقد حملت هذه الآيات الكريمات الكثير من آداب الضيافة، ومنها:

–قيام إبراهيم – عليه السلام – بردّ تحية أضيافه بأفضل من تحيتهم، حيث قالوا: ﴿سَلَٰمٗا﴾ (الذاريات: ٢٥)، بينما هو قال: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾[١] (الذاريات: ٢٥)

قال البلاغيون: ردّ إبراهيم أفضل من سلام الملائكة، فتقدير الكلام إذا رددنا المحذوفات:

* قال الملائكة: نسلم عليك سلامًا. (وهذه جملة فعليّة)
* فقال إبراهيم: سلام عليكم. (وهذه جملة اسميّة)[٢]

---

(١) قول إبراهيم: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ يخالف في ظاهره آدب الضيافة، حيث وصفهم بأنهم غير معروفين!

قال أبو حيان: " والذي يناسب حال إبراهيم – عليه السلام – أنه لا يخاطبهم بذلك، إذ فيه من عدم الأُنس ما لا يخفى، وإنما قال ذلك في نفسه، أو لمن كان معه من أتّباعه وغلمانه." (محمّد الصابوني)

(٢) ولماذا حُذفت تلك التقديرات؟ الجواب: لكثرة دوران مثل هذه الاستعمالات.

والجملة الاسميّة تدلُّ على الثبوت والدوام، وقال ابن عطية: وإبراهيم – عليه السلام – قد حيا بأحسن؛ لأنّ قولهم دعاء، وقوله واجب قد حصل لهم." (خالد السبت: ١٤٢١)

وهكذا الذي يردُّ التحية إمّا أن يردّ بمثلها أو يردُّ بأحسن منها.

- الإسراع في الضيافة ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ أي: " فمضى إلى أهله في سرعة وخفية عن ضيفه؛ لأنّ من آداب الضيافة أن يبادر المضيف بإحضار الضيافة من غير أن يشعر الضيف، حذرًا من أن يمنعه الضيف، أو يثقل عليه في التأخير، قال ابن قتيبة: " عدل إليهم في خفية ولا يكون الرواغ إلّا أن خُفِيَ ذهابك ومجيئك." (محمّد الصابوني)
- الإتيان بأطيب الطعام، وهو العجل صغير السنّ الثمين المشوي، واختاره كذلك زيادة في إكرامهم، ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾!
- وَضْع الطعام قريباً من الضيوف، حتى لا يكون هناك حرج في أكلهم ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.
- التعريض بالأكل ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ فلم يقل: كلوا، وإنما قال لهم في تلطف وبشاشة: ألا تأكلون هذا الطعام!

ومن آداب الضيافة – كذلك – أن يحرص المضيف أن يتأَكّدَ أن ضيفه يأكل، وذلك بمسارقة نظر بلا تحديد أو تطويل، ومن لطائف ما روي في ذلك: " أن أعرابياً أكل مع هشام بن عبد الملك، فرأى هشام في لُقمة الأعرابي شعرة، فقال له: أزل الشعرة عن لقمتك، فقال له: أتنظر إليّ نظر من يرى الشعرة في لقمتي، والله لا أكلت معك!"

(الجاحظ: ٢٠١٠)

حكم الضيافة:

الضيافة عند عامّة أهل العلم ليست واجبة، وليس معنى ذلك ألّا يكرم الإنسان ضيفه، فقد صحّ عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " **مَنْ كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فَليكرمْ ضيفَهُ.**"

(رواه البخاري: (٦٠١٨)، ومسلم: (٤٧))

قال الخن: " فينبغي أن يكرم الإنسان ضيفه لا سيما في اليوم الأوّل، وأمّا في باقي اليومين يأتي بما تيسر، فالضيافة ثلاثة أيام."

(مصطفى الخن وآخرون: ١٩٩٢)

وقال: " وكما أن المسلم يكرم ضيفه، ينبغي على المسلم ألّا يضيف نفسه عند أخيه وهو يعلم أنه فقير ليس عنده ما يضيفه به، حتى لا يوقعه في الحرج أو الإثم." (مصطفى الخن وآخرون: ١٩٩٢)

١٩. العرفان بالجميل من أهمّ أسباب نجاح الحياة الزوجيّة:

العرفان بالجميل خلق أصيل مطلوب ومحبوب، قال صلى الله عليه وسلم: " **لا يشكرُ اللهَ من لا يشكرُ الناس**" (رواه أبو داود: (٤٨١١))، وهو حَديث صحيح.

وشيوع الشكر بين الزوجين من أهمّ دعامات نجاح الحياة الزوجيّة واِسْتَمَرارها، فالزوجة التي يُقدم إليها زَوْجها معروفاً تسعد باهتمام زَوْجها بها وحبّه لها، وفي المقابل الزوج الذي قدم المعروف لزَوْجه يسعده أيما سعادة تقدير زَوْجه له، وشكرها لمعروفه، والعكس صحيح.

هكذا جُبلت النفوس، ولله درّ العدواني حينما قال: مكتوب في الحكمة: " اشكر مَنْ أنعم عليك، وأَنْعِمْ على مَنْ شكر لك."

وعلى النقيض إنكار المعروف أو استقلاله من أسباب التعاسة الزوجيّة، فالزوج أو الزوجة اللذان يقابلان خدمة الآخر بنظرات الاستقلال أو بعبارات تفيد أنه لم يكونا في حاجة إليها، يزرعان الكراهية، ويحبطان من تقديم غيرها من خدمات، فيتعس الجميع بانتزاع البركة فيما بينهما، وصدق عثمان بن عروة: " الشكر وإن قلّ ثمن لكل نوال وإن جلّ."

وبذلك نفهم لماذا طلب إبراهيم من ابنه إسماعيل – عليهما السلام – أن يطلق زَوْجه الأولى ويمسك الثانية!

٢٠. حكم الختان:

ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " **اخْتَتَنَ إبراهيمُ النبيُّ – عليه السلامُ – وهو ابنُ ثمانينَ سنةً بالقَدومِ.**"

(رواه البخاري: (٣٣٥٦)، ومسلم: (٢٣٧٠))

وهكذا كملت طهارة إبراهيم المعنويّة كما كملت طهارته الحسيّة.

والختان من سنن الفطرة، قال صلى الله عليه وسلم: " **الفطرةُ خَمْسٌ أو خَمْسٌ من الفطرةِ: الخِتانُ، والاستحدادُ، ونتفُ الإبطِ، وتقليمُ الأظفارِ، وقصُّ الشاربِ.**" (رواه البخاري: (٥٨٨٩)، ومسلم: (٢٥٧))

ما حكم الختان؟

قال القرضاوي: " الختان للذكور فهو من شعائر الإسلام، حتى قرّر العلماء أن الإمام لو رأى أهل بلد تركوه لوجب عليه أن يقاتلهم حتى يعودوا إلى هذه السنّة المميزة لأمّة الإسلام.

أمّا حكم الإسلام في الختان للبنات، فقد اختلف العلماء والأطباء أنفسهم ...، ولعلّ أوسط الأقوال وأعدلها وأرجحها، وأقربها إلى الواقع، وإلى العدل في هذه الناحية، هو الختان الخفيف، كما جاء في بعض الأحاديث وإن لم تبلغ درجة من الصحة، أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: " لامرأة تقوم بهذه المهمة، قال لها: " **أشمي ولا تنهكي، فإنه أنضر للوجه وأحظى للزوج.**"

والإشمام هو التقليل، ولا تنهكي أي لا تستأصلي، فهذا يجعل المرأة أحظى عند زَوْجها، وأنضر لوجهها فلعلّ هذا يكون أوفق."

(يوسف القرضاوي: ٢٠٠١)

وقال القرضاوي:

" والبلاد الإسلاميّة تختلف بعضها عن بعض في هذا الأمر، فمنها من يختتن، ومنها لا يختتن، وعلى كل حال، من رأى أن هذا أحفظ لبناته فليفعل، وأنا أؤيد هذا وخاصّة في عصرنا الحاضر، ومن تركه فلا جناح عليه؛ لأنه ليس أكثر من مكرمة للنساء، كما قال العلماء، وكما جاء في بعض الآثار." (يوسف القرضاوي: ٢٠٠١)

٢١. الموت على الإسلام:

وصية إبراهيم لبنيه وجميع الذرّيّة كانت: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ (البقرة: ١٣١- ١٣٢)

والسؤال: وهل يملك الإنسان أن يموت على الإسلام؟

نعم، يمكن للإنسان أن يموت على الإسلام، إذا ما أحسن اتّباع الإسلام في هذه الحياة الدنيا شرعة ومنهاجًا، فإن الله سيوفقه للوفاة عليه،

فإنَّ المرءِ يموت – غالباً – على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأنَّ من قصد الخير يَسّره له، ومن نوى صالحاً ثبت عليه، وقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ (الليل: ٥ – ١٠)

وهذا لا يعارضه ما جاء في الحَديث الصحيح:

" **إنَّ أحدَكُم ليعملُ بعملِ أهلِ الجنّةِ، حتّى ما يكونُ بينه وبينها إلّا ذراعٌ ثم يسبقُ عليه الكتابُ، فيُختمُ له بعملِ أهلِ النار، فيدخلُها، وإنَّ أحدَكُم ليعملُ بعملِ أهلِ النار، حتّى ما يكونُ بينه وبينها إلّا ذراعٌ ثم يسبقُ عليه الكتابُ، فيُختمُ له بعملِ أهلِ الجنّةِ، فيدخلُها**."

(رواه مسلم: ٤٩١٠)

لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحَديث: " **ليعملُ بعملِ أهلِ الجنّةِ فيما يبدو للناس، ويعملُ بعملِ أهلِ النارِ فيما يبدو للناس.**"

أي: يعمل هذا العامل عمل المنافق الشاكّ؛ لذا يظهر الله خبيئة نفسه قبل الموت، ويموت على ما كان يبطنه من نفاق وشكّ.

قال محيي الدين الدرويش:

" وفي النهي عن الموت أو الأمر به نكتة بلاغية رائعة، فهو في حدّ ذاته ليس بمنهي عنه ولا مأمور به؛ لأنه من الأمور التي لا تدخل في

الإرادة الإنسانيّة، ولكنه نهي عنه لإظهار أن الموت على خلاف الإسلام هو موت لا خير فيه، وأنه ليس بموت السعداء، ولكن مُت الميتة التي تورثك خلود الذكر في الدنيا والجنّة والحياة الرغيدة في الآخرة، وقد تشبب أبو الطيب المتنبي بهذه النكتة، فقال:

عِشْ عَزيزًا أو مُتْ وأنتَ كَريمُ * * بَيْنَ طَعْنِ القَنا وَخَفْقِ البُنودِ

(محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

٢٢. خدمة المرأة لزَوْجها:

هل للزوج الحقّ في أن يطلب خدمة زَوْجه له؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين مشهورين:

القول الأوّل: خدمة الزوجة لزَوْجها غير واجبة عليها، وهذا قول الشافعيّة والحنابلة والحنفيّة والمالكيّة في قول عندهم.

القول الثاني: خدمة الزوجة لزَوْجها واجبة عليها.

قال محمّد الحفناوي: " والقول القائل بخدمة الزوجة لزَوْجها هو القول الراجح، وهو الذي يطبق الآن في البيوت، وقد يعاون الزوجة خادم أو أكثر على حسب حالة الزوج الماديّة." (محمّد الحفناوي)

وقال القرضاوي: " القضية محلولة بنفسها فالمرأة المسلمة تقوم بخدمة زَوْجها وبيتها بحكم الفطرة، وبمقتضى التقاليد التي توارثها المجتمع

الإسلامي جيلًا بعد جيل، والمرأة المتمردة أو الشرسة لا تنظر رأي الدين ولا يهمها قول أحد من الفقهاء لها أو عليها." (محمّد الحفناوي)

وفي معرفة الزوج بأن كثيراً من الفقهاء لا يرون أن الواجب على الزوجة القيام بخدمة الزوج دعوة لئلا يشطح الزوج بكثرة طلباته من زَوْجه؛ ولئلا يحاسبها الحساب العسير على الكثير والقطمير! إذا ما قصرت في ذلك؛ لأنَّها تقوم بشيء مختلف في وجوبه عليها.

٢٣. بديعة بيانية:

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

(البقرة: ١٢٤)

قال محيي الدين الدرويش:

" في هذه الآية لون بلاغي بديع يسميه أهل البلاغة فن المراجعة، وهي أن يحكي المتكلم مراجعة في القول جرت بينه وبين محاور في الحديث، أو بين اثنين غيره بأوجز عبارة، وأبلغ إشارة، وأرشق محاورة، مع عذوبة اللفظ وجزالته، وسهولة السبك، انظر إلى هذه القطعة من الكلام التي عدة ألفاظها ثلاث عشرة لفظة كيف جمعت معاني الكلام من الخبر والاستخبار، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، وهذا هو التفصيل:

أ- الخبر في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ وهو في الحقيقة وعد باستخلافه على الناس.

ب- الاستخبار في ضمن الخبر؛ لأنه فرع عليه، إذا الخبر يصير استخبارًا بتصدير ما يدل على الاستفهام.

ج- الأمر في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ فإن معناه الطلب لذريته وعد به من الاستخلاف، فكأنه قال: رب وافعل ذلك لبعض ذريتي، وكل أمر طلب، لكنه إذا كان من الله أوجب حسن الأدب أن يُسمى دعاء، ولا يطلق عليه لفظ الأمر، وإن كان أمرًا في أصل الوعد.

د- النهي وهو ضمن الأمر؛ لئن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فكأن معناه: ولا تحرم بعض ذريتي من ذلك.

هـ- الوعد، تقدم بيانه في الخبر.

و- الوعيد في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإن حاصل ذلك أن الظالمين من ذريتك لا ينالهم استخلافي، وحرمان ذلك غاية في الوعيد.

ومن شواهد هذا الفن الشعرية قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

بينا ينعتنني أبصرتنني دون قيد الميل يعدو بي الأغر

قالت الكبرى: ترى من ذا الفتى؟ قالت الوسطى لها: هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيّمتها: قد عرفناه وهل يخفى القمر؟

(محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

o o o o

خاتمة الكتاب

كان قومُ إبراهيم صابئة مشركين، وكانت جهة شركهم النجوم والكواكب، حيث اعتقدوا أنها أجسامٌ ملائكيّةٌ نورانيّةٌ، واتّخذوا لها هياكل وأصنامًا، وعبدوها وعبدوا هياكلها من دون الله تعالى.

فأرسل الله لهم إبراهيم نبيًّا كريمًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فاجتهد إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء في دعوتهم إلى الله دعوة صادقة كريمة، ولم تكن دعوة إبراهيم دعوة عاديّة، حيث كانت دعوته دعوة قويّة حارّة متبرئة من الشرك وأهله، ﴿إِنَّا بُرَءَآؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ (الممتحنة: ٤)

كانت دعوته دعوة متبرئة حتى من أقرب الناس إليه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ (التوبة : ١١٤)

فكانت دعوته – بحقّ – ابتداء عهد جديد للدعوة إلى التوحيد.

وعلى الرغم ما في دعوة إبراهيم من قوّة وحرارة بالغتين إلّا أنها لم تخرج عن كونها – كصاحبها – دعوة حليمة لطيفة، سلك فيها إبراهيم أفضل السبل التي لا يملك معها أي إنسان لديه مسكة من عقل أن يرفضها.

فهل استجاب له قومه؟!

لا، ويا للأسف! فقد ردَّ قومه دعوته، ثم عزموا على قتله حرقًا بالنار، فجاءه الغوث من ربّ العالمين، وسَلِمَ إبراهيم من كيد قومه وشرّهم الكثير المستطير.

بعدها ترك إبراهيم قومه مهاجراً أوّل هجرة عُرِفَت لله تعالى في التاريخ البشري، وكانت وجهته إلى الشام ثم مصر، وجزاه الله على ذلك خير الجزاء فمَنّ الله عليه بغلام حليم من زَوْجه هاجر المصرية، أسماه إسماعيل، كما ورزقه من سارة زَوْجه الأولى بغلام عليم أسماه إسحاق.

ابتلي إبراهيم بأوامر وتكاليف غاية في الصعوبة فأتمهن، ومنها: ابتلي بأن يهاجر بزَوْجه هاجر ورضيعه إسماعيل إلى أرض فاران (الحجاز) حيث المكان الموحش، فنفذ أمر ربّه برضى نفس، وطيب خاطر.

وقد ابتلي بتركهما في هذا المكان القفر الموحش، وليس معهما غير رعاية الله وحفظه، ففعل ونفذ، فحفظ الله وديعة خليله إبراهيم، وأجرى عليهم النعم من ماء زمزم إلى أفئدة من الناس تهوي إليهم.

ثم ابتلي إبراهيم بأمر أكثر صعوبة هو ذبح بكره ومهجة قلبه إسماعيل، فما نكص عن أمر ربّه حتى منحه الله الثناء الجميل في العالمين، فما من أمّة ألّا وتثني عليه خيرًا.

هكذا عاش إبراهيم داعياً للتوحيد غارساً شجره بعرقه وجهده، وأتمَّ أبناؤه الأنبياء من بعده غرسه بتعهدهم شجرة التوحيد، نعم كانت تذبل أحياناً وتورق أحياناً، ولكن في الغالب لم يفنيها الموت والانتهاء.

حتى جاء الرسولُ الأميُّ الهاشميُّ القرشيُّ محمّدٌ صلى الله عليه وسلم، فبعث في شجرة التوحيد الحياة، فنمت واستغلظت، واستوت على سوقها، وفرعها في السماء.

قائمة المراجع:

١. إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، دار الكتب العلمية، ١٩٩١ م.

٢. إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة الصفا، ٢٠٠٢ م.

٣. إسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار التراث العربية للطباعة والنشر، ١٩٨٧ م.

٤. القاضي عياض بن موسى بن عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الحديث، ٢٠٠٤ م.

٥. زكريا بن محمد الأنصاري، فتح الرحمن شرح ما يتلبس من القرآن، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢ م.

٦. بدر الدين بن مالك الدمشقي ابن الناظم، المصباح في المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١ م.

٧. خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير جمعًا ودراسة، دار ابن عفان، ١٤٢١ هـ.

٨. حافظ بن أحمد حكمي، معارج القبول، دار الحديث، ١٩٩٩ م.

٩. شمس الدين بن القيم الجوزية، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان، دار ابن رجب، ٢٠٠٢ م.

١٠. عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني، البلاغة العربية أساسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد، دار القلم، ١٩٩٦ م.

١١. عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار الآفاق العربية، ٢٠٠٠ م.

١٢. عبد الحميد إبراهيم، مقالات في النقد الأدبي، نادي الأدب بالمنيا، ١٩٨٨ م.
١٣. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، قصص الأنبياء، دار أضواء السلف، ٢٠٠٢ م.
١٤. عبد الرحمن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار ابن الهيثم، ٢٠٠٠ م.
١٥. عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، بدون سنة نشر.
١٦. عبدالله بن مسلم ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢ م.
١٧. عدنان محمد الكحلوت، إعلام السادة النبلاء بسيرة صفوة العالمين من المرسلين والأنبياء، دار المنارة، ٢٠١١ م.
١٨. علي القرني، أختاه هل تريدين السعادة، دار عمار بن ياسر، ٢٠٠٢ م.
١٩. عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبين، مكتبة ابن سينا، ٢٠١٠ م.
٢٠. علي بن محمد ابن أبي العز، شرح الطحاوية، دار الحديث، ٢٠٠٠ م.
٢١. محمد إبراهيم الحفناوي، الزواج، مكتبة الإيمان، بدون سنة نشر.
٢٢. محمد خليل هراس، دعوة التوحيد، مكتبة الصحابة، بدون سنة نشر.
٢٣. محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، ٢٠٠٥ م.
٢٤. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، دار ابن حزم، ٢٠٠٢ م.

٢٥. محمد بن محمد أبو شبهة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، ١٤٠٨ هـ.
٢٦. محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.
٢٧. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، بدون سنة نشر.
٢٨. محمود بن الشريف، مع فتوحات سورة الفتح، دار المعارف، بدون سنة نشر.
٢٩. محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم، دار ابن كثير، ٢٠٠١ م.
٣٠. مصطفى سعيد الخن وآخرون، نزهة المتقين شرح رياض الصالحين، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢ م.
٣١. يوسف القرضاوي، من هدى الإسلام فتاوى معاصرة، دار القلم، ٢٠٠١ م.